اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
[٧٨١]

حِـرَف الأجداد.. مستقبل الأحفـاد

(إدكـو ورشيـد)

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة اقرأ

صدر العدد
الأول سنة ١٩٤٣

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب
والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عبد المنعم، إنتصار
حرف الأجداد .. مستقبل الأحفاد: (إدكو ورشيد) / إنتصار عبد المنعم - ط ١ - القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٥.
٢٠٤ ص ؛ ١٦,٥ سم.
تدمك : ٨ - ٨١٨٨ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - الحرف
أ - العنوان

ديوى ٣٣٨,٤٦

رقم الإيداع ٢٠١٥ / ٥٢٧١ ٥٦ / ٢٠١٤ / ١

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إنتصار عبد المنعم

حِـرَف الأجداد.. مستقبل الأحفـاد

(إدكـو ورشيـد)

الطبعة الأولى
٢٠١٥م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين

دار المعارف

أحلام شهرزاد – العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

نحـن أصحـاب الحـرف ليـس يعنينـا التـرف
و لنـا كـل الشـرف أننـا نحيـى المهـن
نحـن أهـل للبـراعـة فـى أسـاليب الصناعة
و لنـا فـى كـل سـاعـة نهضـة فـى كـل فـن
فضـل صنـاع البـلاد كـل يـوم فـى ازديـاد
و لهـم فـى كـل واد حسنـات و مـنـن
مـن بنـى للنـاس دورا مـن كسا النـاس حريـرا
مـن حبا القوت كثيـرا مـن سوى الصناع؟ من؟
إن تكلمنـا فصدقـا أو تعـاملنـا فحقـا
هكـذا بالخلـق نـرقـى ثـم يـرقـى كـل فـن
إن للأوطـان دينـا قـد كتبنـاه علينـا
كـل شـىء فـى يـدينـا هـو حـق للوطـن

(أمير الشعراء أحمد شوقى)

مصر المستقبل

مازلت أتذكر كيف تراقص قلبى من الفرحة، وأبى يقدم لى بمناسبة المولد النبوى تلك العروس المصنوعة من السكر الملون، وقد تُوجت بورق الكروشيه، وأُسدل عليها ثوب مزركش جميل كأنها تزف إلى عريسها..

كان ذلك منذ زمن بعيد فى عهد الطفولة المبكرة..ومازلت أذكر أيضا أننى وضعت العروس بحرص فوق أقرب مائدة من فراشى الصغير.. حتى إذا صحوت من نومى ألقى عليها تحية الصباح.. وأتخيل أنها تبتسم وترد على هذه التحية.. كانت إذن طفولة تنطق كل الأشياء من حولى.. وتبعث البهجة والفرحة فى قلبى الصغير، وتملأ عالمى بكل السعادة والجمال. وحينما كنت أذهب إلى مدرستى "مدرسة الشعب الصباحية".. كنت أنتظر حصة الهوايات، فأسرع إلى الصلصال محاولة تشكيل تماثيل صغيرة للإنسان والحيوان والنبات. أو أطرز بعض القماش بالخيط الملون وأرسم به وجوها وقلوبا وأحيانا كلمات جميلة.. أو استخدم الورق الملون فى رسم أشكال مختلفة مبهجة، أو أكون من سعف النخيل ساعة ومروحة وخاتما وأسورة. وأعود مرة أخرى إلى البيت وأنظر إلى اللوحة المعلقة على الجدار وأتعجب كيف استغل صديق والدى أعواد القش (التبن) بصفِها بجوار بعضها بعضا وهى كما الخيوط

الدقيقة ليكتب بها البسملة بما فى جمال الخط من روعة. ثم تعلمنى أمى كيف أرسم على قماش القطيفة زهورا باستخدام (البرق) الترتر، أو كيف أصنع جَملا من القش والخيوط...

ومن حولى، أرى مدينتى ساحة مفتوحة لمختلف الحرف، ومنتجات الطبيعة تدخل بين أنامل النساء والرجال ثم تخرج صورا متعددة من الفن الذى يلبى حاجة الجميع. وبينما أكبر، أرى تلك الصورة تخفت وتضمحل حتى أصبحت باهتة.

مدينتى؛ إدكو، كانت ساحة عرض – باتساعها وحدودها – للعديد من الحرف. مدينتى التى تقع شمال مصر، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، غارقة منذ الأزل فى الماء والرمال. ما بين ماء المتوسط شمالا وماء البحيرة المسماة باسمها جنوبا (بحيرة إدكو)، محاطة بكثبان رملية ناعمة تكسوها الخضرة فى الشتاء فتبدو كجزر عائمة فى حضن البحر الذى تفتق عنها مثلما فعل مع الإسكندرية الأقرب إليها من حبل الوريد؛ فهى لا تبعد عنها أكثر من نصف ساعة، تمر خلالها على نقطة التقاء مياه البحر المالحة بمياه البحيرة العذبة، دون أن يمتزجا، برغم أنهما متجاوران بحميمية مدهشة، وفيهما تتجاور أسماك البحر وأسماك البحيرة أيضا.

وعندما تصل إلى مدينتى، تكون فى انتظارك رائحة السمك الطازج الذى يرقص فرحا بين أيادى الصيادين، ينتظر منك نظرة، ينادى عليك الصياد، يغريك بمنظر السمك البلطى الوراقى والحسانى والخنينى

الــذى يخفيه فى جــردل معدنى ويغطيه بأعشــاب البحيرة الخضراء. ويجذبك الآخر يغريك بأســماك البحر التى تلمــع بلونها الفضى على طاولات خشــبية. بائع أم الخلول الــذى يقف بالقرب من مبنى مجلس المدينــة، ينادى "حلوة يا أم الخلول". وعندما تنظر، تتعجب من هذا الكائن البحرى الــذى لا يزيد حجمه عن عقلة إبهامك، ولا تدرى أنك بقليل من الملح والليمون ســتحيله إلى أكلة شهية، ولا تتوقع أن يأتى لك أحدهم بحساء أبيض أو أحمر اللون وتكون أم الخلول هذه مصدره.

ربما يســرح بــك فكرك فى كيفية اســتخلاص أم الخلــول تلك من البحر، بأى حال من الأحوال لن تستطيع تخيل ما يجرى. فهناك على البحر، صياد إدكاوى، معه شبكة ضيقة الثقوب، مثبتة بقوائم خشبية مثلثة الشــكل، لها يد خشــبية بمثابة عصا التحكم فى شــبكته، على ظهــره أكياس رمل تثبته فى البحــر فلا يلتهمه الموج، يجرف البحر بشــبكته، ينخله، تخرج الرمال وتبقى أم الخلول، يعود إلى الشاطئ، ويتخلص من أكيــاس الرمال بالتدريج فى رحلــة عودته وعلى الرمال يجلس ليفرزها ويصنفها حســب الحجم والنوع. فمنها البلدى الشهى، والإنجليزى بلونه الأحمر الداخلى.

على محطــة القطار، أى فــى مدخل المدينة، علــى يمينك محطة القطــارات، أعبرهــا، هنا ســترى كيف يصنــع هذا القــارب الصغير العجيب، ذو الشكل الانسيابى الطويل كقوارب فينيسيا العائمة، ستراه ينســاب فى مياه البحيرة وعليه صياد وحيــد، أو برفقة ابنه الصغير،

يدفع المركب بمِدرة خشـبية (عصا خشبية غليظة)، يمسك بشبكته ثم يلقيها عاليا لتأخذ شكل غيمة دائرية قبل أن تهوى على سطح البحيرة تأسـر أسـماك البلطى والطوبار. تتعجب عندما ترى الصياد يخرج من الماء (الجُوبية)؛ وهى شـرك معدنى يشبه الشبك فى تقاطعات خيوطه المعدنية، قريبة من المخروط تتسـع فـى قاعدتها وتضيق فى أعلاها، يضعهـا الصياد فى البحيرة ويتركها ليعود إليها فى اليوم التالى ليجد الأسماك حبيسة فيها.

وتشاهد صيادا آخر يخلع ملابسه وينزل فى الماء ويغوص، لا يبدو منه شىء، يتخفى بين نباتات البوص والبردى، ثم تفاجأ به وقد أمسك بطيور الشتاء المهاجرة القادمة تبحث عن دفء الشرق، تراه قيد طيور الغر والبلبول والشرشـير من أرجلها الملونة الزاهية، وأمسـكها بين يديه يتيـه بغنيمته، ثم يقف على أطـراف المدينة يلوح بها لزائرى المدينة أو عابريها، مغريا إياهم ليبتاعوا منه كنزه الملون.

وعندما تفرغ من تجوالـك على أطراف المدينة، تدخل لتذوب بين أمواج البشر بلونهم المختلط، أبيض مشوب بحُمرة الحملة الفرنسية، أو أبيض محروق بأشـعة الشـمس وملح البحر والبحيرة، العيون بلون سعف النخيل، أو عسل النحل، أو بلون رطب البلح، أسود كليل أطراف المدينة البعيـدة عن زحف البناء. محاصر أنـت بنخيل البلح.. البلح الـذى قد تلون باللون الأحمر والأصفر والأسـود، سـيتحول على أيدى النسوة إلى عجوة ومشوى يتم تخزينه لأيام الشتاء، يصنعون منه حساء

ســاخنا يدفئ صباحات الرجال فى رحــلات حجهم اليومى إلى البحر والبحيرة.

تصادفك أكوام جريد النخل تنتظر على جدران المنازل، لا تتعجب، فبعد قليل سيأتى (القفاصون) من رشيد المجاورة ليحيلوا أكوام الجريد تلك إلى أقفاص استعدادا لموسم جنى البلح، ولن يكتفوا بأقفاص البلح، بل بمهارة فائقة يصنعون أقفاصا أكبر ومســتطيلة الشــكل لنقل الطيور إلى الأســواق، ليس هذا فقط، بل يصنعون من الجريد كراسى وطاولات جميلة بديعة. لا تنســى أن تنظر لســعف النخيل، هذا الورق المدبب الطويل الذى ينزعه القفاصون من الجريد قبل البدء فى عملهم، فهو فى أيدى النسوة ورجال العائلة الكبار فى السن سيتحول فى سهرة عائلية إلــى أوعية من نوع خاص يطلقون عليها القفف والأســبتة وغيرها. هنا الحياة تقوم على النخيل الباســق فــى غابات متناثرة ومجتمعة، وعلى الماء الذى يحتضن المدينة.

أمــام بيوت الصيادين، تشــاهد الشــباك وقد امتــدت بين وتدين، والصيــاد أو ابنه أو زوجه أو الجميع معــا، منهمكون فى إزالة ما علق بها من حشائش البحيرة، ويعيدون ترتيب الأثقال المعدنية المتشابكة على أطراف الشــباك. وعند الانتهاء يعيــدون تجميعها بحب، كثوب عروس استعدادا لصباح اليوم التالى.

أما بيوت المدينة فهى رحبة، تحيط بها حدائق مختلفة المساحة، ولكنها تشــترك فى أشــجار النخيل والليمون والجوافــة التى تتطاول

لتظلل الرائح والغادى، وتحت هذه الأشـجار تجد الخضروات الورقية السـارحة فى الرمـل الناعم الأصفـر. فالزراعة هنا تقـوم على ثلاثة مستويات جنبا إلى جنب. النخيل الباسق ذو الجذور المتوغلة فى عمق الأرض، تجاوره أشـجار أقل طولا مثل الجوافة والمانجو، ومن أسـفل منها فى المسـتوى الثالث توجد الخضروات مـن فلفل وطماطم وبطيخ وغيرها..هكذا لا يكون هناك مقدار شبر من الأرض دون استغلال طيلة أيام العام.

فى إدكو، لن تشـعر بالغربة، ستجد جلسـات العائلة والجيران علـى أبواب المنازل، سـيعرفون أنك زائر. لن تسـمع سـوى جملة (تفضل اجلس معنا) بينما يسـتقر كوب الشاى المغلى بين يديك وطبق البلـح الأحمر يغريك، والجميـع يعرض عليك إيصالـك للمنزل الذى تقصد، فالكل فيها عائلات والعلاقات متشابكة.

هذه كانت إدكو – مدينتـى – قبل أن تتقلص أعداد قوارب الصيد، وقبل أن يتحول الكثيرون عن هذه المهنة بعد أن كان عددهم ما يقارب ١٣ ألـف صياد، كانـوا يتجـاورون بقواربهم فى البحيـرة. وتتحول محلات بيع لوازم الصيد والصيادين إلى بيع مستلزمات أجهزة المحمول والأطباق اللاقطة للبث الفضائى. محلات المحمول تنتشـر فى الشوارع والأزقة. و مقاهى الإنترنت تنتشـر سريعا بعد أن بدأت على استحياء. محلات الاتصالات وكبائن الهاتف تغزو " العراقية" أشـهر مكان لبيع الأسـماك إذ كانـت ملتقى صيادى البحـر وصيادى البحيـرة. تختفى

محـــلات لوازم الصيد والصيادين، وتظهـــر إعلانات الدقائق المجانية، تختفى شـــباك الصيد من أمام المنازل وأســـطحها وتحل محلها أسلاك وصلات الدش أوالأطباق اللاقطة .

ويضيع القاســـم المشـــترك بين الجميع الذين كانوا فى حالة انتظار دائم لما ســـتأتى به شـــباك الصيد. حالة التوحد فى الاهتمام والنشـــاط كانت تجمع البلدة حتى فى موعد النوم والاســـتيقاظ .. يغيب الشـــاب عن الظهور فى شارعه، فيسأل عنه الجار. وتسمع اللغة الدارجة لأهل البلـــدة للتعبير عمن ذهـــب للصيد فى البحيرة بقولهم (فى المســـراح) بكســـر الميم، وهو الشـــائع حيث لا يخضع الصيد فـــى البحيرة كثيرا للنـــوات وحالة الموج والطقس مثل البحـــر. وإن امتد به الغياب يكون (طلـــع البحـــر) على مركب صيد ربمـــا يغيب عليه يومـــا أو يومين. أو ربمـــا يذهب للبحر ويقتصر دوره على جذب أحبال الشـــباك للخارج، حيث يدخل البعض بمركب ليست بالكبيرة ويلقون الشباك فى الداخل ثم يعودون إلى الشـــاطئ ويستغلون ســـواعد الشباب الموجودين فى جر الشـــباك للخـــارج، وتكون القســـمة بين الجميع ليعود بعدها الشـــباب محملين بالأسماك المختلفة لبيوتهم.

اليوم تســـأل عن الشـــاب فيأتيك من يخبرك أنه فى "السيبر" أو أنه يغير الشـــريحة للموبايل، أو يبشـــرك بأنه خرج ضمن مجموعة شباب فى مركب هجرة غير شـــرعية فى مركب متهالك، ربما يكون المركب الصغير نفسه الذى كان يلقى بالشباك لصيد السردين قريبا من الشاطئ.

أو ربما يصبح الشـاب فريسة لسمكة القرش نفسها التى هاجمت سرب السردين وفرقته قبل أن يصل للشاطئ منذ أعوام ليست بالبعيدة.

كل هذا خلق فى وجدانى رغبة قوية فى البحث وراء هذه الصناعات والحـرف التـى رأيتها فى مدينتـى.. ومعرفة تاريخهـا الطويل عند القدماء.. وكيف تطورت واستمرت شاهدة على هوية أصيلة عميقة تؤكد ملامح هذه الأمة.. وتدعو المهتمين إلى ضرورة إحيائها بأسلوب يضمن لهـا البقاء باعتبارها جزءا مهما من ملامح الشـخصية العربية عامة.. والمصرية على وجه الخصوص..

إننـى أدرك تماما أهمية الحفاظ على تراثنا فى أسـاليبه وأشـكاله المختلفة وصلة ذلك بمصر المستقبل.. وأؤمن أن الإنسان الذى لا ماضى لـه.. لا يمكن أن يكون له حاضر ولا مسـتقبل.. فالحاضر والمسـتقبل يولـدان مـن رحـم الماضى..وتراثنا يمثـل ركيزة أساسـية من ركائز ثقافتنا... غير أننا – للأسـف الشـديد – قد نتهم المهتم بهذا التراث بالتخلف أحيانا وبالقصور عن ملاحقة العصر أحيانا أخرى..وهذا وهم يقـع فيه البعـض.. إذ إن التخلى عن جينات الهوية مـن أجل التعلق ببريق الحضارة الحديثة فحسـب.. يوقع الإنسان فى مأزق شديد يكمن فى المحاكاة والتقليد ولا يقوم على قواعد راسخة لها جذور قوية ممتدة فى التاريخ..

ولا يخفى على أحد أنه منذ يناير ٢٠١١م ومصر كورقة الشـجر فى مهـب الريح؛ فقـد ظنت بعض الدول أنها وجدت لهـا ملعبا فى مصر

وأنه قد حانت الفرصة لتمارس اللعب منفردة مهددة تارة ومرغبة تارة أخرى. منها من يهدد بقطع معونة، ومنها من يهدد بمنع القروض التى كانت الدولة تستخدمها لشراء سلع تتوقف عليها حياة المصريين، ومنها من يلوح بمقاطعة أو حتى تدخل عسكرى، وفى كل الأحوال، ومع كل التهديدات سواء حدثت كلها أو بعضها أو لم تحدث، كان لابد لى من وقفة. سألت نفسى: هل نحن فعلا فى حاجة لمعونات وقروض؟ وهل سنموت لو أعلن العالم مقاطعتنا اقتصاديا؟

التاريخ يقول لا، ولكن الحاضر يقول نعم، سنموت. التاريخ يقول إن مصر كانت سلة غذاء العالم وإمبراطورية عظمى تضم دولا ويلجأ إليها الأنبياء. والحاضر يقول إننا نستورد الصغيرة والكبيرة من دول لم تكن ظهرت فى الوجود وقت أن كانت مصر ساطعة كما الشمس. فقد اتجه الجميع إلى الاستهلاك لا إلى الإنتاج. اعتمدنا على الغير فى أبسط الأشياء وأهملنا تراثنا الذى كان يوظف الموجود ويحقق به الكفاية للذات وللغير. وسألت نفسى مرة أخرى ألا نستطيع إحياء الزمن الذى سادت مصر فيه العالم؟ ووجدتنى أهتف: نعم نستطيع لو عدنا إلى استخدام مواردنا الطبيعية والتى قامت عليها حرف وصناعات عاش منها وعليها الأجداد فحققوا لأنفسهم الاكتفاء والربح، ولدولهم الكفاية والاستغناء عن الدول الأخرى. فلدينا بحران ومجموعة من البحيرات، نيل عظيم واهب الحضارات، أرض زراعية وأخرى صحراوية تنتظر من يحيلها إلى جنة خضراء؛ كل ذلك قامت عليه حرف عديدة ومتنوعة

بقى منها القليل وانحسر فى مناطق بعينها وأصبح على وشك الاندثار. ومنها ما اختفى إلا مــن بعض أثر يتم عرضه فى المتاحف. وهناك ما تم الســطو عليه ونســبته إلى الغير، وليس أبلغ مما حدث مع الفلافل أو الطعمية المصرية أو الشامية، والكوفية الفلسطينية اللتان قدمتهما إســرائيل إلــى الغرب على أنهما تراثها الشــخصى بل وتوســعت فى الترويج إعلاميا وتجاريا لهما فى كافة المحافل الدولية المعنية بهذه الأمــور. وهذا بعض مما يؤكــد عليه دكتور عز الدين نجيب فى قوله: (لم تعد الأمم المتحضرة تنظر إلى موروثها من الفنون اليدوية التقليدية نظــرة أدنى من الفنون الجميلة التشــكيلية)، أو على أنها فنون العامة المتصلة بالأغراض النفعية التى لا ترقى إلى القيم الجمالية المتحفية، فقــد أدركــت أن هذا الموروث يمثــل الإبداع الجمعى للشــعوب ودالة هويتها الثقافية، بل هو وعاء رسالتها الحضارية فى عصور ازدهارها، بما تشــمله من قيم المعتقدات والعــادات والتقاليد والأخلاق والمعانى الإنسانية، كما أن لها حضورها الواضح وتأثيرها القوى على الذوق العام أكثر من فنون النخب المثقفة.(١)

كل هــذا وأكثر جعلنى على يقيــن أن البحث فى هذه القضية جدير بالاهتمام ويســتحق منــى جهدا غيــر عادى..بدءا بالإيمــان بأهمية وجود واســتمرار وتطور هذه الصناعــات.. وانتهاء بالمزج بين التراث والمعاصرة من أجل مصر المســتقبل ليحمل ملامح الشــخصية المصرية التى استطاعت برغم تحولات التاريخ أن تمتص كل وافد وتجعله رافدا من روافد هذه الشخصية المتفردة.

وأطمح أن تكون هذه الفكرة إضاءة مهمة لمستقبل مصر، ذلك المستقبل الذى ينبغى أن يقوم على ركيزتين أساسيتين الأولى: تهتم بالتراث العريق وتلقى الضوء عليه بقصد تنقيته وإبرازه فوق صفحة التاريخ المضيئة.. والثانية: الإطلالة على العصر وانتقاء تلك المفردات التى تضيف لتراثنا ولا تنقص منه.. وهاتان الركيزتان ليستا منفصلتين لكنهما تتفاعلان معا فى قبضة واحدة.. هى قبضة الوطن الذى يتطلع إلى الحفاظ على هويته والاستفادة من تقنيات العصر..

وفى هذا الكتاب سأتناول بعض أشهر الحرف التقليدية فى بيئات مصر المتنوعة والمرتبطة بتصنيع منتجات محلية قائمة على معطيات البيئة المحيطة مثل تصنيع أجزاء أشجار النخيل، واستغلال الغاب (البوص) ضمن مشروعات طموحة قد تحل محل غيرها لقلة تكلفتها مثل منازل الإيواء العاجل وغيرها.. إلخ. أيضا سأشير إلى الظروف الاجتماعية لمن يعملون أو كانوا يعملون بالحرفة، وأدت إلى اختفاء بعض هذه الحرف وتقهقر البعض الآخر، مع ذكر بعض الجهود والمشروعات التى قدمها المهتمون بالموضوع نفسه، والتى تناولت كيفية استعادة هذه الحرف وتطويرها لتناسب المعطيات الحضارية والبيئية الحالية.

وكلى أمل أن يدرك المعنيون بأمر مصر، أن مستقبل مصر يكمن فى استغلال مواردها الطبيعية، وتوعية الفرد بكيفية الاعتماد على نفسه فى توفير مأكله ومشربه وتدبير أموره الحياتية فى أحلك الظروف

التى تعقب الانهيارات الاقتصادية والسياسية، بما حوله من معطيات بيئية.

وقد تخيرت مدينتى (إدكو ورشيد) لتركيز البحث عليهما وذلك لتوفر كل المتطلبات التى تلزمنى فى إثبات فكرة أن مستقبل مصر فى إحياء الحرف التقليدية التى قامت على معطيات البيئة المحيطة. المدينتان بهما المسطحات المائية من بحر ونهر وبحيرة، وأرض زراعية طينية وأرض رملية وغيرها، كل ذلك ساهم فى ظهور العديد من الحرف المرتبطة بما منحته الطبيعة لقاطنى المدينتين، ليقوموا بتوظيف كل ما حولهم والاستفادة منه.

بقى لى تقديم الشكر للفنان الكبير "عز الدين نجيب" رئيس مجلس إدارة جمعية أصالة الذى وضع يدى على مفردات مهمة فى أثناء زيارتى له فى مقر الجمعية بوكالة الغورى.. وقد أهدانى أجزاء موسوعة الحرف التى تضم دراسات نظرية وعملية فى مجال دراستى.. فأفدت منها ومنه الكثير..فله الشكر الواجب والعميق.

وشكر واجب إلى الشاعر الكبير الأستاذ "أحمد سويلم" الذى أمدنى بالعديد من المراجع التى أفدت منها كثيرا كى أنجز هذا البحث فى صورته النهائية هذه، على أمل بأن يتبعه جزء ثان يتناول حرفا أخرى عمل بها أهل مدينتى إدكو ورشيد...

إنتصار عبد المنعم

الحرف.. بدايات وشواهد

الحرفة

وفقا لما جاء فى مختار الصحاح باب (ح ر ف):

(الحِرفة) بالكسر. فى حديث عمر رضي الله عنه "لحرفة أحدهم أشد على من عيلته" والحرفة أيضا الصناعة و(المحترف) الصانع. (٢)

وفى لسان العرب: والصناعة حرفة الصانع وعمله الصنعة. (٣)

وأيضا، حرف حرفا لعياله: كسب من هنا وهناك.

وأحرف: كد على عياله.. أو استغنى بعد فقر.

وتحرف: تكسب من كل حرفة (وجمع حرفة: حرف).

واحترف: اتخذ حرفة.

والمحترف: الصانع.

والمُحْرِف: الذى نما ماله وصلح.

وفى حديث عائشة: لما استُخلِف أبو بكر رضي الله عنهما قال: لقد علم قومى أن حرفتى لم تكن تعجز عن مؤونة أهلى.. وشُغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبى بكر من هذا ويحترف للمسلمين فيه.

وفى الحديث الشريف: "لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس".

أما مادة صنع، فتقول فيها المعاجم:

صنع يصنع صنعا الشيء: عمله فهو مصنوع وصنيع.
وصنعة: زينه وحسنه بالصناعة.
والصُنع: العمل.
والصنعة: عمل الصانع.
والصناعة: تجمع على صناعات ومصانع.
يقول تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ كل شيء. (٤)
ويقول أيضا: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ (٥)، أى اتخذتك.
ويقول كذلك: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾: أى تربى وتنمو وتشب.
وقد تكلم ابن خلدون فى مقدمته عن الصنائع فمنها ما يختص بالمعاش ومنها ما يختص بالأفكار. فمما يختص بالمعاش الحياكة والجزارة والتجارة والحدادة وغيرها، ومن الثانى الوراقة والغناء والشعر وتعليم العلم. والصنائع راسخة برسوخ الحضارة.. والعرب أبعد الناس عن الصنائع والسبب أنهم أعرق فى البداوة.. وأبعد عن الحضر.. ومثلهم البربر فى المغرب، أما المشرق فقد رسخت فيه الصنائع منذ مملكة الفرس والنبط..والقبط واليونان والروم أحقابا متطاولة. ويؤكد ابن خلدون أيضا، أن من أجاد صناعة قل أن يجيد غيرها والسبب أن الملكات صفات للنفس. ثم أخذ يعدد الحرف والصناعات بالتفصيل مثل الفلاحة والبناء والنجارة والحياكة والخياطة، وصناعة التوليد، والطب.. إلخ.
وترجع بدايات ظهور ما نطلق عليه (حرفة) إلى بدايات الإنسان الأول عندما نظر حوله فوجد الحجر فاستخدم يديه ليصنع ما يحتاجه

فـي حياتـه اليومية من أدوات تسـاعده فى صيد طرائده مثل السـكين والحـراب وغيرهما. وعندما قدح حجرين ببعضهما صدفة فتولد منهما الشـرر، عرف النار فاسـتخدمها. وهكذا استخدم الإنسـان يديه فى تطويـع كل ما حوله لخدمته، واحترف صنع أشـياء لنفسـه، وعندما احتاج لشـيء آخر من غيره صنع نسـخا متعددة ليبادلها معه مقايضة أو بيعـا.. وهكذا مـا إن نذكر كلمة حرفة حتى يتبـادر إلى الذهن كل الصناعـات أو الحرف التى تعتمد علـى (اليد) كونها أبرز عضو تعتمد عليـه الحرف جميعا، وبالطبع هذا لا ينفى أهمية الأعضاء أو الأطراف الأخرى فـي العديد من الحرف مثل الصيد والزراعة والنسـيج.. إلخ. ولكن ينبغى أن نلفت الانتباه إلى أن: كل عمل يدوى ليس من الضرورى أن يحكم عليه بالشـعبية مع التسـليم بأن الصناعـات اليدوية عريقة، وأنها تسـاير جميع المراحل الثقافية والحضارية فى تاريخ الجماعات والشـعوب. وليسـت كل مادة شكلتها يد الإنسان شـعبية لمجرد أنها متخلفـة بالقيـاس إلى اسـتخدام الآلات، أو التوسـل بالتكنولوجيا، أو استهداف الإنتاج الكبير. يضاف إلى ذلك ما استقر عند الباحثين من التفريق بين ما هو دارج أو منتشر وبين ما هو شعبى. (٦)

ويلاحـظ أن تطـور الأدوات والأشـياء التـى صنعها واسـتخدمها الإنسـان كانت مرتبطة بالنشاط الذى زاوله، فمثلا اهتم بصنع وتطوير أدوات تسـاعده على الصيد عندما كان يعتمد على الصيد بصفة أساسـية للحصـول على غذائه، ثم تطورت وتنوعت الأدوات، ثم اكتشـف مواد

جديدة بـدلا من الحجارة التـى صنع منها أول ما احتـاج من أدوات. وعندما تحول النشاط من الرعى إلى الزراعة معتمدا على مياه الأمطار، ازدادت الحاجة لأدوات أخرى تساعده من فأس وغيره. وهكذا فى مصر القديمة، سـكن المصرى القديم وادى النيل، وعندما شعر بالاستقرار، ارتبط أكثر بالنيل والأرض فامتهن الزراعة وأبدع فيها.

وهكذا كانت نشـأة الحـرف – كما بينا – والتى بـدأت بصورتها الوظائفيـة الأولى والمرتبطة بتحقيق المنفعة للإنسـان، ومسـاعدته على التأقلم مع بيئته واسـتغلال معطياتها فيمـا يتمكن به من تطويع كل ما حوله، واسـتخدامها كذلك فى عملية التقرب إلى القوى الخفية فى الكون عنـد تقديم القرابين وصنع التمائم لتتخذ الحرف بُعدا دينيا وعقائديـا. وعلى الرغم من ذلك، بدأ – وبالتدريج – يظهر فيها الحس الجمالى والإبداعى. فحتى الإنسان البدائى كانت لديه فطرة الانجذاب إلـى أشـكال الجمال فى الطبيعـة ولو كانت بصـورة بدائية، ليتحلى بأشياء بسـيطة مثل بعض الأحجار الملونة وقطع من سيقان الأشجار، والودع والأصداف، يعلقها حول رقبته، أو يحيط بها معصمه أو قدمه. وهذا نفسه ما يؤكد عليه دكتور عبد الحميد يونس بقوله:

"وإذا التفـت المـرء إلى نفسـه أو إلى غيره فى بيئـة متحضرة أو بدوية فإنه يجد العناية الخاصة بالزينة، ومهما تنوعت الوسـائل فإن الحلـى المعدنية، الذهبية والفضية وغيرها تحتل المقام الأول فى الفن الشـعبى. وقد يعـز التعرف على أصل حلية أو زينـة معدنية خاصة،

ولكن الدراسة المتعمقة تكشف عن ممارسة تحفز إليها عادة أو عقيدة أو تقليد، وأصبح لها بعد ذلك وظائف أخرى تعين على التجميل، أو تؤكد المكانة الاجتماعية أو المزية الشخصية فى المجتمع أو الشعب". (٧)

وقد اهتم المصريون القدماء بالنقش على الجدران، ينحتون ويرسمون صورا ومشاهدا من حياتهم اليومية أو من حياتهم بعد الموت عندما يقفون للحساب وتوزن أعمالهم، ولم يكن النقش على جدران المعابد فقط بل على جدران المقابر أيضا، يسجلون عليها رحلة الميت إلى العالم الآخر وكأنه فى الحياة الدنيا وسط أهله وأولاده وفى أرضه بين فلاحينه الذين يجمعون المحصول أمام عينيه، أو يصورونه وهو يقوم بأنشطة مختلفة مثل الصيد وغيرها من أمور عادية يمارسها الأحياء. وهذا الاهتمام بالعالم الآخر والنظرة إليه كامتداد للحياة الدنيا، أو كأنه صورة أخرى مطابقة لها، جعلهم يضعون كل ما يحتاجه الميت من أدوات من صنع الحرفيين المهرة، وهى المواد نفسها التى كان يستخدمها فى حياته. فقد كان يدفن معه الحلى من ذهب وفضة والنحاس، وأدواته المنزلية:

"والواقع أن حاجات الميت هى حاجات الأحياء نفسها، وفضلا عن هذا، فكثيرا ما كانت بعض الأيادى التقية تضع فى القبر أدوات كان الميت قد استعملها أو ارتداها أو مثلث له ذكريات عائلية". (٨)

وإلى جانب النقش والحفر على الجدران، صنع المصرى القديم مجموعة من التماثيل للخدم والحرس، لتوضع معه فى المقبرة وتخدمه

فــى رحلته إلى العالم الآخر، وكانت هــذه التماثيل تصنع من الخزف المطلى والبرونز أحيانا. وكانوا فى كثير من الأحيان ينقشون على قاعدة التمثال المَهَمة التى يتوجب عليه القيام بها وبالنيابة عن أى شــخص. وهــى ما يطلق عليها (الشوابتى / الأوشــابتى) وهــى تماثيل تنوب عن الميت فى القيام بالأعمال المختلفة والمفروض عليه أن يؤديها بنفسه. وهى فكرة بدأت منذ أوائل الدولة الوسطى، ثم جرت العادة منذ الأسرة الثامنة عشــرة على أن يحتوى المتــاع الجنائزى على واحد أو أكثر من هذه الشــوابتى وهى على هيئة تماثيــل صغيرة وكأنها مومياء ملفوفة، وكانت فى أول الأمر لا تحمل شــيئا، ثم صــارت تحمل معدات الحقل مثل الفــأس والمعول، ومعها بعض النصوص الســحرية لتقوم بعملية إحيائها كى تؤدى الأعمال نيابة عن الميت الذى هى فى صحبته. ومما وجد مكتوبا على قاعدة تمثال يمثل أوزوريس:

"أيها الشوابتى (التمثال) إذا كان أوزوريس، المبرأ، قد نودى عليه واستدعى وكلف بالقيام بكل الأعمال التى يجب أن تعمل، فى الجبانة، كرجــل قادر على القيام بما يوكل إليه لتزدهر الحقول، وتروى أراضى الضفتين، وتنقل الرمال من الشــرق إلى الغرب، فما عليك إلا أن تقول: هأنذا أفعل".

وزاد الاهتمام بصنع التماثيل الشــوابتى بعد ذلك، بحيث أصبحت النماذج التى توضع معها من أدوات ومعدات الزراعة والسلال حقيقية، ثم صارت الأداة جزءا من التمثال نفســه. هذا إلى جانب تمثال القرين

الــذى يصنع كصــورة مطابقة للميت صاحب المقبــرة كى تتعرف عليه الــروح عند عودتهــا. وتوجد نمــاذج متعددة للشــوابتى فى المتحف المصرى، مثل (أوشــابتى حور) وارتفاعه ١٩,٥ سم، وهو خاص بحور ويمســك فأســا ذا نصل عريض أمام كتفه الأيمن وفأســا آخرا أمام كتفه الأيســر، كما يرفع فوق ظهره ســلة لحمل الرمــال أو الطمى، والنص الهيروغليفى المنقوش على التمثال من اليمين إلى اليســار يتضرع إلى الأوشــابتى أن يكون بديلا لحور فى العالم الآخر. وعلى الأوشــابتى أن يطيــع الأوامر ويســتجيب عندما يطلب للعمل بدلا مــن حور إذا طلب حــور للقيام بــأى عمل يــدوى فى الجبانــة . كذلك هنــاك مجموعة تماثيل شــوابتى للملك طهرقا النوبى من الأسرة الخامسة والعشرين من الألباســتر والجرانيت وأحجار أخرى، والتى اكتشــفتها بعثة متحف الفنــون الجميلة فى حجرة الدفن بمقبرة طهرقا فى نورى بالســودان. وهناك شــىء يجب الانتباه إليه، وهو أن الشوابتى برغم أنها مرتبطة بالطقوس الجنائزية، فإن ذلك لم يستلزم أن تكون خالية من البهجة فى الألوان والهيئة والملامح. ومثال لذلك أوشــابتى رع مسسو الذى يلبس شــعرا مستعارا طويلا أسودا بشرائط صفراء عند أطرافه، أما لون الوجه المنحوت الملامح بدقة، فتم طلاؤه بالأحمر، كما أن العينين والحواجب ملونة بالأســود. وعلى الصدر قلادة صفراء ذات خطوط حمراء وســوداء متوازية. كذلك أوشــابتى تا – مكت الذى يبلغ ارتفاعه ١٨سـم، تظهر – أيضا – بشــعر مســتعار طويل. وقد نحتت ملامحهــا بطريقة فائقة

الجمـال، كما لونت عيناها وحواجبها باللون الأسـود. ويزين صدرها قلادة مزخرفة بشـرائط صفراء ويحدها خطوط سـوداء وحمراء. وهناك سـلة معلقة على كتفها الأيمن. وقد لون كل الجسم بالأبيض، وزين من الأمام بسطر رأسى من الهيروغليفية يعطى اسم المتوفاة. وهناك نماذج أخرى ومتعددة للشوابتى فى المتحف المصرى.

كل هذا الاهتمام بتفاصيل الحياة فى القبر، جعل بعض المستشرقين يرجعون بقاء المعابـد والمقابر التى بناها المصريون القدماء بالصخور والأحجار إلى اليـوم – بينما اندثرت بيوتهم التى بنوها باللبن – إلى اهتمـام المصرى القديم بحياته بعد المـوت وعلاقته بالآلهة فى العالم الآخر أكثر مما اهتم بحياته قبل الموت.

وهكـذا كانـت مختلف الحرف تتطـور لتأخذ إلـى جانب بعدها الوظائفى المعتاد، بعدا جماليـا مرتبطا بالعقيدة والحياة الأخرى بعد الموت، وتوظفـه فى بناء وتزيين المعابد والمقابـر الملكية والأدوات التى تصاحب الميت فى رحلته الأبدية؛ ففى كل مقبرة يتم اكتشافها، كان يتم الكشـف عن المزيد من المعلومات عن تقدم النشاط الحرفى فى مصر القديمة، والأكثـر من ذلك يظهر مدى الاهتمام بالعنصر الجمالى والفنـى. ففى (برديـة نخت الجنائزية) نجد منظـرا لبيت فى مدينة "هابـو" يعـود إلى نخت الـذى كان كاتبا ملكيا وقائدا عسـكريا. وفى الصورة يظهر نخت وزوجته خارج البيت ينشـدان لإله الشـمس رع. وأمام البيت نخلة وشجرة مثمرة، وبركة مياه بها زهور اللوتس وطيور

مائية، والبيت له درج ذو سلالم وبوابة كبيرة وله أربع نوافذ وثلاث فتحات تهوية. (٩)

ومن الأشياء التى عثر عليها فى مقبرة الملكة (حتب حرس) والدة الملك (خوفو)، محفة ذات زخارف، خلاخيل من الفضة مرصعة بالفيروز واللازورد. وأدوات الزينة المصنوعة من الذهب والنحاس ويتجلى فيها مدى تقدم استخدام المعادن وصناعة الأوانى الحجرية والفخارية وكذلك الأخشاب فى عهد الأسرة الرابعة. وأيضا عثر على قطع من الأثاث المرصع بالعاج والمعادن فى سقارة.

وكما تبين الصور المعروضة فى المتحف المصرى، نجد أن فى الدولة الوسطى نشطت أعمال النجارة والنسيج. ومما يذكره بيير مونتيه فى كتابه "الحياة اليومية فى مصر" والذى يتحدث عن دقائق الحياة اليومية فى أثناء فترة حكم الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين والذين أطلقوا على أنفسهم اسم رمسيس خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد، يتبين لنا أن الحرف قد بلغت أوجها ونضجت حتى أصبحت منشط من مناشط الحياة المعتادة واليومية..

"وتخصص الغرف فى الطابق الأرضى فى غالب الأحيان للحرف المنزلية، وفى طيبة على سبيل المثال فى منزل أحد الأهالى المدعو تحوتى نفر كانت النساء تغزلن بينما يعمل الرجال بالنسج على الأنوال، وفى الغرف المجاورة كانوا يطحنون الحبوب ويعدون الخبز". (١٠)

وفى بردية تعود إلى عصر الرعامسة تتحدث عن عادات المصريين فى المديح، يأتى ذكر العديد من الأشياء التى صنعها حرفيون مهرة

والمواد التى استخدموها، بل يتبين كيف ساد الاهتمام بالزخرفة والعنصر الجمالى بوجه عام:

"فلتحل نعمة آمون فى قلبك! ولتمنحك شيخوخة سعيدة! وتقضى كل أيام حياتك فى سعادة وسرور، وأن تصل إلى أعلى مراتب الشرف والتمجيد، ولتكن شفتاك طاهرتين وأعضاء جسمك قوية، وعيناك حادتى البصر، إنك لمكسو بالكتان، تركب عربتك وبيدك سوط ذهبى المقبض، وتمسك يداك أعنة جديدة، وخيولك مطهمة من سوريا، ويجرى الزنوج أمامك ليفسحوا الطريق، وتركب قاربك المصنوع من خشب الصنوبر المزين كله من مقدمته إلى مؤخرته. وتصل إلى قصرك الجميل المحصن الذى شيدته بنفسك وفمك ملىء بالنبيذ والجعة والخبز واللحوم والحلوى، ولحوم الثيران قطعت إلى أجزاء وجرار النبيذ قد نزعت عنها أغطيتها. وغناء شجى تتردد أنغامه على مقربة منك وينشر حامل الروائح العطرية عبيرها حولك. ويقف أمامك رئيس البساتين ومعه أكاليل الزهور ورئيس الواحات يقدم لك السمانى كما يقدم رئيس الصيادين الأسماك. وتصل مركبك من سوريا محملة بجميع الأشياء الطيبة وحظيرتك مملوءة بالعجول، وتوفق الغزالات فى خدمتك وتبقى ويتهاوى أعداؤك. وليس فيك ما ترمى به من شر وتدخل أمام مجمع الآلهة التسعة وتخرج منه منتصرا" (١١).

وقد أوضحت الاكتشافات الأثرية التى تمت فى قرية مرمدة بنى سلامة التى تقع جنوب غرب الدلتا، شمال غرب القاهرة بنحو ٥٠ كيلو متر،

أن سـكان القرية عرفـوا الزراعة و قاموا بتخزيـن الحبوب فى صوامع مـن الخـوص والقش، وأنهم عرفـوا أيضا صناعة الفخار. وقد اسـتنبط المؤرخون من آثار مرمدة بنى سـلامة أن سكانها كانوا يرعون الماشية ويطحنون الغلال وأنهم توصلوا إلى رؤوس السـهام المثلثة الشكل، كما أنهم عرفوا النسـيج حيث نسجوا ملابسهم من الكتان، وتزينوا بالحلى على هيئة أسـاور من العاج و خواتم. كما عرف سكان مرمدة بنى سلامة نوعين من المساكن، الأول وهو بيضاوى الشكل يُبنى من كتل من الطين، و يبـدو أن أهل مرمدة فكروا فى طريقة لتخطيط قريتهم وذلك بأن قاموا ببناء بيوتهم فى صفوف تكاد تكون مسـتقيمة ويفصلهما شـارع ضيق. وكان أهل مرمدة بنى سـلامة يدفنـون موتاهم بجانب منازلهم فى قبور ووجوههم متجهة نحو الشرق. وكانوا أيضا يقيمون مجتمعاتهم بالقرب من حواف وشـطآن المسـتنقعات، وتحت حماية النباتات الكثيفة التى كانـت تعمل كمصدات للهـواء. كما عثر أيضا علـى مجموعة كبيرة من الأكواخ الواطئة البيضاوية الشـكل والتى بنيت من كتل الطين الجاف، ويقع أساسه تحت مسـتوى سطح الأرض، وفى كل منها كان يوجد إناء واسـع الفم مثبت فى الأرض حيث كان يسـتخدم لتجميع مياه الأمطار التى تتسلل خلال السقف المصنوع من القش.

وفى عهد الأسـرتين التاسعة عشـرة والعشرين كانت قصور فرعون مزينة دائما بأفخم النقوش وكذلك فى عهد إخناتون؛ إذ كانت الجدران والسـقوف والأفاريز والأعمدة والأرضيات موشـاة بالرسـوم والنقوش

وكانت فخامة الأثاث وروعة الحلى والملابس تكمل هذه المجموعة سموا وروعة. ولا أروع من ما تم اكتشافه فى مقبرة توت عنخ آمون الذى فاق كل تخيل عن مدى التقدم الذى وصل إليه الفن الحرفى فى مصر الفرعونية. فالأسرة والآرائك والعربات والمركبات والصناديق والخزائن وأدوات الزينة والمائدة والأسلحة وأشياء أخرى توضح بجلاء كيف تحولت الحرف من وظيفتها النفعية الأولى لتأخذ أبعادا جمالية وعقائدية وبمنتهى الإتقان.

وهناك أيضا زخارف ورسوم تظهر الأنشطة اليومية للمصريين على جدران مقابر بنى حسن، والتى تم بناؤها واستخدامها لدفن حكام المناطق أثناء عصر المملكة الوسطى فوق موقع قديم للدفن كان يستخدم أثناء فترة المملكة القديمة. توجد بهذه المنطقة ٣٩ مقبرة، وأهمها مقابر ختى وباكيت وأمنحتب وأمنمحات. وتضم هذه المقابر نقوش توضح عمليات صيد الأسماك والحيوانات والنسيج ومحاصرة الطيور والسفر والحروب. كما سترى أيضا رسومات توضيحية رائعة على الواجهة. وهذا ما جعل بعض الباحثين يرون أن المعابد والمقابر ما هى إلا كتاب كبير استخدم الحفار أو الرسام المصرى القديم كل أسطحه كصفحات كتاب لم يترك منها سطر واحد. (١٢)

وفى أواخر الدولة الفرعونية، راجت صناعة التمائم والتماثيل الصغيرة من الطين وصبها فى قوالب من الجص أو الحجر، تلك الصناعة التى استمرت فى العصرين اليونانى والرومانى. فكانت الطينة تصب

فى قوالب، ثم تحرق بعد جفافها، ثم يتم تلوينها. واستمرت أيضا فى العصر الإسلامى وخاصة الفاطمى. وقد وجد فى منطقة الفيوم عرائس فخارية مطلية بدهانات بيضاء وحمراء يرجع تاريخها إلى القرون الأولى الميلادية. ومن الملاحظ أن عرائس الفيوم تشبه فى أشكالها عرائس الحلوى التى نطلق عليها (عروس المولد). وذلك لأوجه التشابه المتعددة بينهما، فعرائس الفيوم تستند رؤوسها إلى ما يشبه المظلة دائرية الشكل، وكأن خلفها قوس قزح، وهذا يشبه المروحة الورقية الملونة بألوان زاهية التى تكلل رأس عروس المولد. بل إن هناك فى المتحف المصرى بعض التوابيت التى ترجع إلى العصور اليونانية والرومانية، تصور وجوها لنساء يكلل رؤوسهن بعض أنواع الورد وعلى صدورهن قلائد وثيابهن مزركشة بصور مستمدة من الطبيعة، مما يبين أن فكرة عروس المولد لها أصل توارثته يد الصانع وغير فيه وفقا للثقافة السائدة فى العصر الذى عاش فيه. فمثلا فى العصر الفاطمى راجت صناعة تماثيل الحلوى وهذا ما يشير إليه المقريزى فى قوله: وفى آخر يوم منه – يعنى شهر رمضان – سنة ثمانين وثلاثمائة حمل يانس الصقلبى، صاحب الشرطة السفلى، السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقا فيها تماثيل حلوى، وحمل أيضا «على بن سعد المحتسب» القصور وتماثيل السكر.

وقال ابن جبير فى رحلته فى وصف أسواق مكة: وأما الحلوى فتصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى،

يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة، وفى الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان تتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة، ولم يشاهد أحد أكمل منظر منها لا بمصر ولا بسواها، وقد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية، وجليت فى منصات كأنها العرائس، ونضدت بسائر أنواعها المنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزاهر حسنا، فتقيد الأبصار، وتستنزل الدرهم والدينار.

ومما سبق يتضح أن عرائس المولد ما هى إلا نموذج للتطور فى صناعة ما أو حرفة معينة، فالمصرى القديم هو الذى صنع التماثيل صغيرة الحجم (الشوابتى) لتخدم الميت فى رحلته، ووضع معه قرينه تمثالا، ثم وجدنا عرائس الفيوم، ثم عرائس الحلوى، وكل ذلك تطور لفن النحت الذى أصبح يؤدى وظيفته العقائدية أيضا.

وتلخص لنا الفقرة التالية ما طرأ على الحرف من متغيرات كبرى أثرت فيها سلبا وإيجابا..

"وبعد انتهاء حكم الرعامسة حوالى عام ١٠٨٥ ق.م.، تعاقبت على مصر بعد ذلك موجات استعمارية متتالية من الفرس عام (٥٢٥ ق.م.) إلى الإغريق (٣٣٢ ق.م.)، ثم الرومان عام (٣١ ق.م.)، وكلها أثرت على حركة الفنون فى مصر أحيانا كثيرة بالسلب والقليل منها بالإيجاب؛ إذ بدأ السمت المصرى يشوبه الاختلاط بأنماط أخرى وافدة، فقد ساد مصر بعد دخول الإغريق ما سمى بالفن الهيلينى القائم على المحاكاة والتفاصيل المرئية الدقيقة، وهو ما أطاح به الفن المسيحى القائم على

الزخرفة والتوريق، وله الفضل فى نشـوء فن الأرابيسـك... حتى جاء الفتح العربى لمصر وهى تحت وطأة الحكم الرومانى عام (٦٣٩ م) بقيادة عمـرو بن العاص وفى عهد الخليفة عمـر بن الخطاب. وفى هذا الوقت كان الأقبـاط يمارسـون معظم الحرف مثل الخرط الخشـبى والخيامية والتطعيم والمصاغ الشـعبية والمنسـوجات وغيرها مـن الحرف. وظل الأقباط والمسـلمون يعملون جنبا إلى جنـب لحقب زمنية طويلة تصل إلى خمسـة قرون، تعلم فيها المسـلمون من المسيحيين أصول الحرف حتى أصبح للفن الإسلامى شخصيته المستقلة التى لم تؤثر على انسجام الشخصية المصرية بمسلميها ومسيحييها." (١٣)

وهكذا شـاعت الحرف وتطورت عبر العصـور، وتعددت مجالات الحرف وأسـماؤها والتى يعجز المرء عن حصـر المندثر منها، وهذا ما جعل عبد الله النديم يكتب راصدا الحرف فى مجلة الأسـتاذ: "كنت تـرى فـى كل قرية الكثير من البزازين ينسـجون القمـاش والزعابيط والدفيئـات والحرم والملاءات وغيرها، والنسـاء والرجـال والغلمان يغزلون القطن والكتان فى وقت فراغهم من الأشـغال، وبهذا الاجتهاد توصلوا لعمل الملاءات من الحرير والقطن فى مصر والإسكندرية والمحلة الكبرى وأسيوط وبسيون والفيوم، وعمل العصبة والغزليات والكوريشة والشـعارى والفوط والمناديل والثياب الحريرية فـى المحلة ودمياط، والقطنى والشـاهى والغزلى والبشـاكير والفوط فى مصر وإسـكندرية. ومقاطع الحرير الرقيقة سـاذجة ومنقوشة ومزركشـة ومطرزة بالتلى

والترتر والأزرار الحرير والصوف والقطن والشـريط والحرير والسواعد والبرانس الحرير وزر الطربوش والطواقى المقصبة والحزام. والمخيش والكمر الحرير وفوط الحمام والوضوء والتكك والكياس والمحارم ووجوه المخدات الحريرية والصوفية مزركشة وغيرها، كل هذا فى إسكندرية وعمل الشـرابات (الجوارب) الصوف والقمصان والحرام (أصله الحريم لما يلبسـه المحـرم) والبطانيات الخفيفة والسـراويل وخُمر النسـاء والزعابيط والدفيئات الرقيقة والمقاطع الصوف فى الفيوم، وعمل الحصر فى منوف، والقماش فى كل بلد، والنعال فى مصر وإسـكندرية ورشيد ودميـاط، وعمـل القلل والـدوارق والحالب والقـدور والبلاصى والزير والماجور والطاجن والبوشـة والشـاليه والصحفـة والزبدية والخابية والديريق والقادوس والمسرجة والمصحن، كل هذا يصنع من الفخار فى جريس وقنا ومصر وكثير من البلاد.

وعمـل القفة والمقطـف والفرد والطبـق والنخ والبـرش والزنبيل والسـماط والفطالة والمرجونة (وعاء من خوص تحفظ فيه الأشياء) كل ذلـك من الخوص والحلفاء، وعمل السـواقى من توابيت ذات قواديس، والطواحين المائية والحيوانية والمحراث والقصابية والزحافة واللواطة والفـأس والباريـة والنـورج والشرشـرة والمنجل والقدوم والمنشـار والمسـطرين والديورة والموسـى والمقص والملقاط وكماشـة الأسـنان والنجـار والمسـمار والشـاطور والكلاب والمسـلة والميبر والسـكين والحربة والدبوس والشـاكوش والمطرقة والسـندال والكالون بمفتاحه

والمفصلة والرابوة البريمــة والمثقاب والفارة والدقماق واللجم ودناجل العربيات وأطواقها والطشوت النحاس والأباريق والهاوون، والحنفيات والمناقد والمباخر والقماقم والطاسات والقزانات والصوانى والغلايات، وعمل الكيزان والفانوس والفنار القماش والمصافى والمســارج الصفيح، وعمل الكراســى والطبالى والملاعق والمغــارف والصلايات والمراجيح والمشايات والدرابزين الخرط والأسرة الخشبية والأقفاص والنمالى.

وصناعــة القــرط وترصيعــه بالمــاس والياقــوت والحلــق واللبة والصنيبرة والشــعيرى والكردان والحزام والأســاور والخواتم والقصبة والعيــون والجبين والقصة والطوق والدملــج والخلخال والحياطة وقفل الحزام والمنطقة وأصابع الســواعد والمرايــا وظروف القهوة وبكرجها وصينية القلل والقهوة وطشت الوضوء والحمام والغسيل وطاسات الحمام والشــبكات والمــاء والمباخر والقماقم والملاعــق والأطباق وكل ما يلزم لخوان الأمراء وعرائســهم، وعمل العيدان والتركيب والشمع والقناديل والســروج والبرانع والتختروان والطبل والزناد وورق البردى وحجارة العيدان والجوزة والشيشــة واللبن والماشة والمقشة والمنشة والمروحة والمكبة والمشــعل والعربيات والمعمارية والتقالة والشبابيك والأبواب والدواليب والمشــربيات والخورنقات ودولاب السر والملاعق والفوف والســقوفات الجميلة والملاقف الغريبة والقمريات، يتخلل ذلك كثير مــن صنعة الخراطــة البديعة والنقــوش اللطيفة ، والدبــلان والدبارة والحبارة وحجــارة الطواحين والأرحاء وعــدد الجمال وقطع الأحجار

والرخـــام والبلاط وصنع الجير والجبـــس والقرب والزلع الجلد وأكياس الدخـــان وحريزة النقـــود والشماســـى والمراتب والألحفـــة والمخدات والناموسيات والستر والشلتات والمنصات والدكك والكوريت، يخيطون من ضروریاتهم الزعبوط والدفية والقميص والســـراويل والجبة والبنش والفرجيـــة والقفطان والصديـــرى والعنترى والقاوشـــمة والبلكة والبك والكركـــة والفســـتان والتنورة والشـــنتيان والجلابيـــة والملس والعرى والبدادى والبشـــت والعباية والبرنس والكاكولة والشخشـــير والطوزلق والمريون. (١٤)

* * *

الحرفة بين التقدير والتحقير

تراوحت النظرة إلى الحرفة بين التقدير والتحقير، سواء لدى المصريين القدماء أو لدى العرب فى العصر الجاهلى على وجه الخصوص، أو فى غيره من العصور بوجه عام، بل إن آثار تلك النظرة بقيت إلى يومنا هذا، وذلك على الرغم من أن كثير من الأنبياء امتهن مهنا مختلفة؛ فقد كان سيدنا آدم – عليه السلام – فلّاحا يحرُث الأرض ويزْرَع بنفسه، وكان نبيُّ الله إدريس خيّاطا، ونوحٌ كان نجّارا، وكان خليلُ الله إبراهيم بنّاءً، وهو الذى بنَى الكعبة وعاونَه فى عملية البناء ولدُه إسماعيل، وكان نبى الله إلياسُ نسّاجًا، وسيدنا داودُ حدادا يصنَع الدروع. و سيّدنا موسى كان راعيًا للغَنَم، وسيّدنا عيسى علمه الله العمل بالطب ليشفى الأعمى والأبرص (عليهم جميعا السلام). أمّا سيدنا محمد – ﷺ – فكان يعمل منذُ الصِّغر راعيًا للغنم، ثم عمل بالتجارة.

كذلك من الصحابة الكبار من احترف حرفة، فأبو بكر الصديق كان تاجر أقمشة، وعمر بن الخطاب، دلالا، وكان عبد الرحمن بن عوف، تاجرا، والزبير بن العوام, خياطا، وسعد بن أبى وقاص، كان نبالا يصنع النبال. وكان على بن أبى طالب يقول مفتخرا:

لنقل الصخرِ من قُلل الجبالِ
أحبُّ إلى من منهن الرجالِ

يقول الناس فى الكسب عارُ
فقلتُ العارُ فى ذل السؤال[1]

ومما قاله أيضا: "إنى لأرى الرجل فيعجبنى، فأقول هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عينى".

كذلك جاء فى الكتب المقدسة ذكر بعض الحرف والأدوات المستخدمة فيها:

"وأرسل حيرام ملك صور رسلا إلى داوود وخشب أرز ونجارين وبنائين فبنوا لداوود بيتا". (١٥)

ومن أدوات الحرف التى جاء ذكرها فى الكتاب المقدس الفأس والمنشار: "هل تفخر الفأس على القاطع بها أو يتكبر المنشار على مردده". (١٦)

كذلك جاء فى أخبار الأيام الأولى: "وهيأ داوود حديدا كثيرا للمسامير لمصاريع الأبواب وللوصل"

وفى القرآن الكريم، جاء الحديث عن نوح عليه السلام وصناعة السفن: ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ (١٧)

وعن داوود عليه السلام وصناعة الدروع: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ﴾. (١٨)

وعن يوسف عليه السلام وخزانة الحبوب: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾. (١٩)

---

(١) ديوان الإمام على: جمع وترتيب عبد العزيز الكرم – بيروت – المكتبة الشعبية ص ١٠٥.

وعن موسى عليه السلام ورعى الغنم: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾. (٢٠)

وفي القرآن الكريم أيضا، ورد ذكر بعض الحرف مثل صيد اللؤلؤ عندما كانت الجن تقوم به من أجل سليمان عليه السلام: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾. (٢١)

كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾.(٢٢)

في آيات أخرى جاء النحت وصنع التماثيل في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾. (٢٣)

كذلك حثت الأمثال الشعبية على تعلم الحرف منذ الصغر، ومن الأمثال المتداولة والتي ذكرها لنا بعض كبار السن في مدينة إدكو (صنعة في اليد خير من خليفة الجد)، و(اليد البطالة نجسة)، و(اعمل بخمسة "خمسة قروش"وحاسب البطال "العاطل عن العمل")

وعلى الرغم من كل ذلك التقدير والاهتمام بالحرف وتعلمها لدى الأنبياء والصحابة، كان هناك قسم ينظر نظرة دونية إلى الحرف والحرفيين، لدرجة اعتبارها عيبا ومسبة مثل بعض العرب في الجاهلية، أو حد النهي عنها والابتعاد عنها تجنبا لما يلاقيه الحرفي وخاصة من يأخذ الزراعة حرفته وهذا ما كان المصري القديم يخوف ولده منه.

فعــن نظرة العربى فى العصر الجاهلى إلــى الصنعة جاء فى معجم البلدان: اعتبر قسم من العرب الجاهليين الحرفة أو الصنعة من الأمور المســتهجنة، فلا يليق بالعربى الحر الشــريف أن يكــون صانعا لأن الصنعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم والمســتضعفين من الناس... كذلــك كان العربى يرى فيها تقييدا لحريته وحــدا من حركته. وقيل إنهم إذا أرادوا تحقير إنسان وسبه بكلمة تكون مجمع السباب قالوا له يا بن الصانع، بل إن العدنانيين كانوا يعيرون اليمنيين بأنهم كانوا بين دابغ جلد وناسج برد. (٢٤)

وربما يرجع ذلك إلى أن العربى فرضت عليه الطبيعة القاحلة حياة البــداوة وما فيها من مغامرة وأخطار، بينما تتطلب الحرفة اســتقرارا وثباتا وهذا ما ذكره بلاشير: "وبما أن البدوى يعتاد منذ صغره مشاهدة الحياة الملأى بالأخطار، لذلك يزدرى كل ما يبعد عن العنف.. ويحتقر المهن اليدوية والفلاحة وغيرها. فالصيد والاختطاف والحرب شــغله الشاغل فى الليل والنهار.. ومن هناك كان تفضيله الذكور على الإناث، إذ يرى فيهم خير معوان" (٢٥)

وفى نظرة العرب الجاهليين إلى المشتغلين بالحرف يقول جواد على:

"أمــا الأعراب فقد كانوا يأنفون من الاشــتغال بهــا، وينظرون إلى المشــتغلين بها نظرة احتقار وازدراء لأنها فى عرفهم حرف وضيعة، خلقــت للعبد والرقيــق والمولى، ولا تليق بالحر، حتى إن الشــريف منهم وذا الجاه، كان لا يحضر وليمة يدعوه إليها شــخص من أصحاب الحرف، اســتنكافا وازدراء، لأنه ليــس فى مكانته ومنزلته. وقد كان

عمل الرسـول كبيرا فى نظر رؤسـاء القوم يومئذ، حينما جوز حضور طعام الخياط والصانع وأمثالهما، وكان يحضر منازلهم، فعد القوم ذلك عمـلا غير مألوف، ومخالفا للعرف والتقاليد. وكان أهل القرى ينظرون إلـى الحرف والمحترفيـن بها نظرة ازدراء كذلـك، ويأنفون لذلك من التزاوج معهم... ويلحق هذا التعيير الأبناء كذلك" (٢٦)

وبمقارنة ما سـبق من أقوال تصف كيـف نظر العرب فى الجاهلية للحـرف والحرفيين، بما يحدث اليوم فـى بعض المجتمعات العربية فى العصور الحديثـة، نجد بالفعل أن بلدان شـبه الجزيرة العربية، وخاصـة دول الخليج منها تعد أكثر البلدان تميزا فى نظرتها المتدنية للحرف، ولذلك جاء اعتمادها على اسـتقدام العمالة من الخارج للقيام بالحـرف أو الأعمال غير المكتبية التى يسـتنكف مواطنوها من القيام بهـا. ولكن فى الآونـة الأخيرة، بدأت الحكومات فـى محاولة تربية جيل جديد من الشـباب يرتضى بأن يكون مهنيا أو حرفيا وذلك بتقديم كافة الإغراءات المادية كى يقبل أن يكون مدرسا أو سائقا أو ممرضا فى مستشفى أو عامل نظافة! وإن كانت الجهود الحكومية تُبذل، فالأصعب هو تغيير النظرة المجتمعية المتوارثة لأى عمل يدوى، أو عمل يتطلب جهـدا وتقديم خدمة مباشـرة للغيـر مثل مهن التدريـس والتمريض وغيرهـا. ولربما كانت الحالة الاقتصادية المزدهرة سـببا فى صعوبة تغييـر النظرة المجتمعية متوارثة تجـاه الحرف التى اقترنت ببعض الجنسـيات المستقدمة من الخارج . ولربما اعتبرنا اليوم أن ذلك الأمر

من خصوصيات مجتمع الخليج وحده القادر على تفعيل النظرة الدونية للحرف باستخدام الغير للقيام بها نيابة عنهم وذلك بفضل الحالة الاقتصادية المزدهرة. وذلك على العكس من الدول العربية الأخرى التى وإن توارثت حب العمل المكتبى الحكومى والسعى إليه، ولكن فى الوقت ذاته، فقد توارثوا أيضا – ونظرا للحالة الاقتصادية – حث أولادهم على تعلم صنعة أو حرفة جنبا إلى جنب مع التعليم النظرى الحكومى. وهكذا يكون لديه فرصتان للعيش، بالحرفة التى تعلمها إن لم تمنحه الحكومة عملا رسميا، وبالعمل الحكومى إن حالفه الحظ، أو بالاثنين معا لعدم كفاية الراتب الذى يتقاضاه عن عمله الحكومى.

وعلى الرغم من كل ذلك، يتوارث الجميع تلك النظرة للحرفى وإن كانت بطريقة أقل وطأة، فالطبيب أهم من الميكانيكى، والمهندس أفضل من السائق.. بل إن نظام التعليم يعزز هذه النظرة عندما يقصر أمنيات التلاميذ فى كتاب القراءة على أن يتعلموا ليكونوا أطباء ومهندسين.

* * *

نظرة المصرى القديم إلى الحرف اليدوية

من الممكن أن نستقرئ نظرة المصرى القديم للحرفة وأصحابها عن طريق مجموعة من النصوص المدرسية الإنشائية والتى جُمعت تحت مسمى (منوعات)، وهى مجموعة من الموضوعات المتفرقة والمتعددة المحتوى، والتى كانت تستخدم فى مصر القديمة كتمرينات لتدريب الطلاب على الكتابة فيما يشبه بالدروس العملية للتدريب على القراءة والكتابة. ومن بين التدريبات المخصصة لتعليم الصغار الكتابة فى الدولة الحديثة، توجد فقرات تحث التلميذ على التعلم ليكون (كاتبا)، وعلل ذلك بقوله: "إنها تنقذك من العمل المضنى، وتبعدك عن كل أنواع العمل اليدوى، وتحميك من حمل المعزقة والمعول، وتحميك من حمل السلاح".

ثم يأتى الترغيب فى التعلم كونه يضمن له مرافقة الكبار، ولكن عليه أولا بذل الجهد فى الدراسة: "لقد أدخلتك المدرسة التى يدخلها أولاد الكبراء كى أعلمك وأوجهك بالنسبة لهذه الوظيفة التى سوف تقودك إلى القوة والسلطة. انظر! سأخبرك بمنهج الكاتب: اثبت مكانك! اكتب أمام أقرانك! نظف ثوبك بنفسك! واعتن بخفيك. احضر لفافة البردى التى تخصك كل يوم وحافظ عليها. ولا تكن كسولا، اكتب بيديك، سمع بفمك، اقبل النصيحة، لا تتململ، لا تضيع يومك فى

الكســل وإلا ترهلت. تعمق فى فهم أساليب مدرسك وأطع تعاليمه. كن كاتبا".(٢٧)

ويزيــد: لا تكن كاســدا! لا تكن خاملا! ســوف تُختبــر من الآن فصاعدا. لا تنهمك فى الملذات وإلا فشــلت. اكتب بيديك وســمع بفمك واتبع نصيحة من يعرف أكثر منك.. تمســك بالعمل كل يوم.. لا تمض اليــوم فى خمول وإلا ضربت.. التزم بقبول النصح. لا تكســل، اكتب، لا تظهر تبرمك من الكتابة! (٢٨)

وكى يضمن طاعته وتنفيذه تلك الإرشــادات، أعطاه أمثلة عملية لما يلاقيــه أصحاب بعض الحرف من كد وعمل باليد، واســتفاض فى ذكر مــا يصيب الذى يحترفها، وظروف حياته: "دعنى أريك حال الفلاح، الحرفة الأخرى الشاقة، عندما يفيض الماء يقوم بالرى مستخدما آلاته، ويظل يومه يشــحذ أدواته لزراعة الشــعير، ويظل ليله يبرم الحبال. وحتى وقــت الظهيرة (وقت الغذاء) يظل يعمل فى فلاحة الأرض. وقد عود نفســه على هذه المشقة مثل الجندى. ويمتد الحقل العطشان أمامه قبل الرى، فيسرع لجمع قطيعه...".

ولا يقتصر الأمر على المشــقة البدنيــة فى أمور الزراعة، بل يذكر له كيف أن الكاتب الذى يجمع الضرائب له سلطة الإيذاء البدنى للفلاح وأسرته لو عجز عن توريد المحاصيل التى يريدها السيد:

"الكاتب يرســو علــى النهر، ثم يشــرع فى تقريــر الضريبة على المحصول، يحيط به الحشــم بالهراوات، والنوبيون بالأسواط، ويقول

أتباعــه: ســلم الشــعير! ولكن لا شــعير، فيضربونه (الفــلاح) ضربا مبرحــا، ثــم يقيدونه ويلقونه فــى الماء، فيغطس حتى يشــرف على الهلاك. أما زوجته فيوثقونها أمام ناظريه ويضعون أولاده فى الأغلال، ويهجرهم جيرانهم ويهربون، والنتيجة أنه لا غلال. فإذا كنت عاقلا، فكن كاتبا".

وهكذا تتضح امتيازات الكاتب، مقارنة بحالة الفلاح البائسة وخاصة عند المعاملة الضريبية والتى يجد فيها الكاتب فرصته ليظهر نفوذه:

"يرســو الكاتب على شاطئ النهر ليشــرع فى تقدير الضريبة على المحصــول، وفى الوقت الذى يحمل فيه الحاضرون الحبال، والنوبيون جريــد النخيــل، إنهم يقولون: ســلم الحبــوب!، ولكــن لا حبوب. فيضربونــه بلا هــوادة.. لكن الكاتب هو ســيد الجميع، فهو يعفى من الضرائب، لذلك ليست عليه ضرائب تحتاج إلى تسوية" (٢٩)

ولا يقتصر الأمر على التخويف والتنفير من الزراعة ومشــاقها، بل توجــد نصوص تحذر مــن وظائف ومهن أخرى. فمثــلا يصف الجندى الذى يبذل الجهد فى الخدمة العسكرية: "طعامه وشرابه على كاهليه مثل الحمار"!

أما عمل الكاتب يســمو على كل عمل سواه فى البلاد. فهو معفى من التجنيــد عند الحرب. و معفى من العمــل بالزراعة والرعى، ومن دفع الضرائــب، ومن بذل الجهد مثل غيــره كالخباز مثلا الذى عندما يضع خبزه فى النار تكون رأسه فى الفرن مباشرة وابنه ممسك بقدميه، فإذا أفلت ذراع الطفل وقع فى النار.

يقــول نــب ماعت رع نخــت (لأونــم رى آمون) : "كــن كاتبا تظل أطرافك ناعمة، وحتى لا تتعب يدك بســرعة فلا تســتهلك سريعا مثل القنديــل، وحتى تصبح كمن لانت أطرافه كأنها خالية من العظام. أنت طويل، وأطرافك رقيقة. فإذا حملت حملا تداعيت تحت ثقله، والتوت قدماك بشــدة لأنك ضعيف جدا. وأطرافك مفككة وجسدك نحيل. اعزم علــى أن تكون كاتبا، فالكتابة مهنة ممتازة تناســبك تماما. إذا ناديت واحدا أجابك ألف. وإذا مشيت فى طريق أفسحوا لك. ولن يسلموك كما يسلمون الثور وسوف ترأس الآخرين (٣٠)

ويجب أن نشــير هنا إلى من هو المقصود بالفلاح، المقصود بالطبع ليس بصاحب الأرض، بل الفلاحون الذين يعملون مثل عمال الســخرة لــدى الســادة الذين يملكــون الأرض، وبيدهــم إيقــاع العقوبات على الفلاحيــن إن خالفــوا الأوامر أو إن لم يؤدوا عملهــم بالصورة المتوقعة منهــم، أو حاولوا الهرب من العمل. ففى متحف بروكلين توجد بردية تحتوى على أســماء سبعة وسبعين شخصا أغلبهم رجال فرضت عليهم العقوبات لهروبهم من العمل بالسخرة فى الحقول ولم تقتصر العقوبات عليهم فقط بل امتدت لتشمل ذويهم الذين كانت تؤخذ منهم رهائن فى بعض الأحيان. (٣١)

وفى الأســرة الحادية عشــرة يكتب نخت للعاملين فى أرضه الذين يراقبون عمال الســخرة أن يراقبوا العمال جيدا للتأكد من بذلهم أقصى مجهود وإلا تعرضوا للعقاب:

"اعطـوا الرجال الزاد أثنـاء العمل.اعتنوا كثيـرا، اعزقوا الأرض كلها، اسـتعملوا الغربال فى النخل، انهمكوا فى العمل حتى آذانكم. انظروا! إذا كان العمال مجدين فشـكرا للإلـه، لأنكم وإياى لن نضطر للإساءة إليهم. "(٣٢)

والسـؤال الذى يتبادر إلى الذهـن الآن هو إن كانت هذه التدريبات تصف فعلا حال الحرفة والحرفيين والأعمال اليدوية والبدنية فى مصر القديمة، فمن قام بتشـييد وزخرفة المعابد والمقابر التى وقفت صامدة شـامخة فى وجه الزمـن والطقس وغيرها من أمـور؟! ومن الذى صنع التماثيـل من الحجـارة والذهب وغيرها؟! وكيف تطـور فن الزخرفة وصناعـة الأوانى والأثاث ليصل إلى تلك الدرجة من الدقة والجمال فى مقبرة توت عنخ آمون على سبيل المثال لا الحصر؟

ولذلك نعتقـد، أن هذه النصوص، ربما كانت تقدم بصفة أساسـية إلـى أولاد طبقة معينة مـن الأغنياء والمقربين من الحاكم أو السـيد، بينما باقى الشعب يتلقى تعليمه المهنى الذى يمكنه من خدمة السادة. فكما هو واضح من التدريبات، أن الكاتب يتم إعداده لكى يخدم الحاكم ويكون عينه على باقى الشـعب الذى هو أيضـا فى خدمة الحاكم ولكن الكاتب يتمتع بشـروط خدمة محسـنة يتمتع فيها بمميزات تعفيه من مشاق يتحملها غيره. ولربما كانت تلك المبادئ لمن سكنوا طيبة ومنف لكونهمـا عاصمتا مصر وبالتالى يكون كل شـىء فيهما مميزا ومهيمنا على باقى المناطق والأقاليم.

وأيضا ينبغى أن نلاحظ أن فى كل التدريبات، كان التركيز على كون الكاتب لديه سلطة لا يملكها غيره من أصحاب الحرف، وله مكانة مميزة، إلى جانب تجنبه أى إرهاق بدنى. وكل هذا من شأنه ترغيب الصغار فى التعلم، وفى الوقت نفسه ترهيبهم من التكاسل فى التعلم. وذلك يجعلهم يبذلون جهدهم كى يكونوا كتبة يعملون لدى الملك ويكون لهم سلطة على غيرهم. والملاحظ أيضا أن (الكتابة) مهنة لا تقتصر على النسخ والتسجيل ولكنها كانت أشبه ما تكون بأعمال السكرتارية فى العصر الحديث. فكان كبار الموظفين أنفسهم يفخرون بلقب الكاتب ويتمسكون به ضمن مجموعة ألقابهم التى يتباهون بها فالكتابة فى ذلك الزمان كانت مهنة تتمتع بالاحترام الشديد.

وفى هذا يذكر مونتيه: "لم تقتصر الأمة المصرية على أن تضم فى أرضها مزارعين وكتبة فحسب، ولو كان الأمر كذلك ما وجدت الأهرامات ولا المعابد ولا المدافن، وما كان للأميرة حتشبسوت أن تزين شعرها الأسود بتاج فى منتهى الروعة ودقة الصنع، وما كانوا قد انتزعوا من المحاجر عمودا من الجرانيت يبلغ طوله أكثر من ثلاثين مترا ونقلوه من أسوان إلى طيبة وشكلوه على هيئة مسلة نقشوها بالكتابة الهيروغليفية الدقيقة، ثم أقاموها على قاعدتها، ولم يستغرق الأمر سوى سبعة شهور، مما يدل على ما يتسم به المصريون من صفات استثنائية وخاصة أن هذه العملية قد تكررت عدة مرات خلال كل حكم فى عهد الدولة الحديثة. ولم يقدر الكتاب هؤلاء الصناع المهرة حق قدرهم وعدوهم أقل منهم مرتبة.." (٣٣)

ولذلــك، وعــن طريق مــا وصل إلينا مــن كنوز وآثــار توضح تطور الحرف والصناعات المرتبطة بها، نستنتج أن التعليم فى مصر القديمة مثلمــا كان يحــث على تخريج الكتبــة، كان منه ما هــو متعلق بتعلم الحرف، وبصورة منظمة ليصــل إلى هذه الدرجة من الإتقان كى يكون قــادرا على إرضاء الحاكم الذى يحرص على تخليد انتصاراته وتاريخه وحياتــه على المعابد، وهكذا ظهر على نقوش المقابر والمعابد اهتمام المصــرى القديم بأرضه والأنشــطة التــى يزاولها الفلاحــون، ليصور حياته فى أرضه، ومدى الســعادة التى كان يشعر بها فى أثناء حياته، والتــى أراد أن تصاحبــه مع باقى ملاذ الحياة فى قبــره. ولكن من كان يقدر على تشــييد المعابد وإقامة المقابر الهائلة، واســتخدام الكهنة لتحنيــط جثثهم بدقة تضمن لهم الخلود هم طبقة الحكام، وكبار القوم الذيــن كانوا فى حياتهم، يتمتعون بمباهج الحيــاة بينما يقوم آخرون بخدمتهم. وهكذا جاءت نقوش المقابر والمعابد الفخمة لتصور مشاهد ترفهم فى أرضهم بينما يراقبون الفلاحين وهم يعملون عندهم بالسخرة. ولذلك من الطبيعى أن ينسب المعبد أو المقبرة لصاحبها دون إشارة إلى المهندس الذى أشرف على البناء ناهيك عن العمال . وهذا ما أشار إليه "بيير مونتيــه" بعد أن ذكر الكثير عن نقوش معبد الكرنك، ثم حديثه عن التماثيل الملكية المصفوفة فى توابيت والمرســومة على سفينة من طراز عتيق، الجالســة منها والواقفة والأوانــى وغيرها، بعد كل ذلك يتســاءل عمــا إذا كان هؤلاء الصناع المهرة تمتعــوا ببعض التقدير بما يتلاءم مع إتقانهم لفنهم! ثم يذكر مثالا: عندما تفقد (بويم رع) الكاهن

الثانـــى لأمون ومدير عام معبد الإله، الأشـــغال التى تمت فى المصانع وقابل رئيس الفنيين ورئيس العمال اللذين توجها بالكلام إليه قائلين: تفـــرح كل القلوب لهنائـــك. ولكن "بويم رع" لم يفه بكلمة شـــكر لهما بالمقابل. فقد كان ينظر إلى تلك المهارة الشديدة وبراعة الفن كما ينظر إلى سلال القرابين والعينات والمعادن الخام ومواد الطعام التى يجمعها رجال الضرائب كحق مكتســـب لصاحب الأرض، وواجب على الجميع أن يقوموا به دون استحقاق كلمة شكر واحدة. وليس هناك ما يؤكد أنه نطق مرة بكلمة طيبة أو بعبارة تهنئة لأمهر عماله... بل إن المشـــرف على العمـــال كان يخاطب الصناع والحرفييـــن الفنانين ليس مثنيا على عملهم المتقن، بل يحثهم على العمل والجد بهدف تخليد الحاكم، أى كان العمال يشتغلون لتمجيد الإله آمون أو تخليد الملك والوزير أو كبير الكهنة كغاية فى حد ذاتها.

بـــل إن هناك بعض النصوص والنقوش توضح كيف كان نظام التبنى المهنى غالبا أســـريا بحيث الولد يرث عمل أبيـــه من بعده، وفى ذلك حفظ لأســـرار الحرف وحفظ لمكاســـب الأســـرة. وربما كان هذا النظام بداية ما يعرف بنظام الطوائف الذى ظهر وانتشر فى عصر بناة الأهرام كمـــا ثبت بوجـــود التماثيل القرينية التى عثـــر عليها فى مقابر خاصة بطوائف الحرفيين والعمال.

وهكـــذا، إذا عدنا إلـــى تلك النظـــرة المنفرة من الحـــرف اليدوية والتـــى ظهرت فـــى تدريبـــات الكتابة، نلمـــس أن لها أثـــرا تتوراثه الأجيـــال ولكن بصـــورة أخف حدة بمـــرور الزمن؛ فإلـــى اليوم يفضل

الشـباب العمل (الميرى) أو الحكومى ويسارع للالتحاق بالتعليم العام ولا يتجـه إلى التعليم المهنى طوعـا، بل يتجه إليه إذا لم يحصل على مجمـوع الدرجات التى تؤهله للتعليم العام، ليقضى سـنوات من عمره فى دراسـة لم يكن مؤهلا لها ويتخرج أيضا وهو غير مؤهل لممارسـة أى حرفة أو صنعة درسـها بغير اختيار. ويعزز نظـام التعليم وكذلك أفلام السينما هذه النظرة عندما تأتى بصورة الطبيب أو المهندس مكللة بهالة من الاحترام، بينما تأتى بصورة الميكانيكى على سـبيل المثال وهـو ملطخ الوجه بالشـحوم وملوث الملابس بالأصباغ وممددا أسـفل سيارة بينما يحادثه صاحب السيارة باستعلاء. وهكذا كان من الطبيعى أن ينفـر المصرى مـن العمل المهنى والدراسـة المهنية ليتكدس على مقاعـد الكليات النظرية ليتخرج ويجلـس عاطلا ينتظر عملا حكوميا. وبالتدريج وبعد أن كان الوالد صاحب الحرفة يحرص على توريث ابنه حرفته ضمانا لها من الاندثار وضمانا لمورد رزق، اسـتغنى الأولاد عن حرف آبائهم ومورد رزقهم وانشغلوا بمعطيات العصر التكنولوجية فلم يعد لديهم وقت للجلوس مع الأب أو شـيخ الصنعة ليأخذوا منه أسرار الحرفـة. وهذا ما وصلنا إليه فى بحثنا هـذا من خلال المقابلات التى أجريتها مع الحرفيين فى مناطق مختلفة وفى حرف مختلفة أيضا..

أما الفلاح بالذات فبقى حاله منحصرا فى دائرة السـيئ أو الأسـوأ. فكما كتب دكتور السيد أمين شلبى فى جريدة القاهرة متحدثا عن تعلق الفلاح بأرضه وبذله كل جهده فيها وعلى الرغم من ذلك لم يتملكها..

فإنه من المثير للسخرية الشديدة أن الفلاح الذى أحب الأرض وحرثها أنكرت عليها ملكيتها وكان الملاك الشرعيون دائما هم من عاشوا بعيدا عنها واعتبروها مصدر دخلهم... ثم يواصل قائلا: كان الازدهار الاقتصادى للبلاد فى الفترة من ١٩١٩م وحتى ١٩٥٢م – والذى لم يستمر طويلا – مرحلة من الضيق والشدة والحرمان بالنسبة للفلاحين الفقراء، وقد سارت الأوضاع بعد ذلك من سيئ إلى أسوأ خلال الثلاثينيات والأربعينيات. فقد تحمل الفلاحون وطأة جميع الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فالمشروعات الاقتصادية والتحولات الاجتماعية التى أعقبت ثورة ١٩١٩م لم تضع فى اعتبارها أية وسائل فعالة لتحسين أوضاع الفلاحين الذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من الشعب المصرى... وتصاعدت الديون على الفلاح بصورة مخيفة فواجه أسوأ التحديات لحياته فى تلك الفترة.. ثم يواصل الحديث عن حال الفلاح بعد الحرب العالمية الثانية:.. تصاعدت التوترات الاجتماعية جراء عدم تنفيذ وعود الإصلاح الزراعى وتحسين الحالة الاقتصادية. ووصلت الحالة المتردية للفلاح إلى ذروتها فى ظل الإرهاب الذى مارسته حكومات "محمد محمود" والذى أطلق عليه "الرجل ذو القبضة الحديدية" و "إسماعيل صدقى" والتى استمرت من عام ١٩٢٣م وحتى عام ١٩٣٠م.. وكان أعضاء البرلمان من النخبة التى صمت آذانها عن قضية العدالة الاجتماعية وحياة الفلاحين البائسة... وفى حين كان الفلاحون الفقراء يتمرغون فى براثن الفقر

والإفلاس كانت الحكومة تحاضرهم عن الفاعلية المزعومة لسياساتها الاقتصادية .. وعن استغلال الفلاحين فى مواسم الانتخابات، يقول أيضا: كان ملاك الأراضى يسيطرون تماما على مستأجريهم وتم تزوير الانتخابات وأصبحت الضرائب المفروضة أكثر تعسفا، وكان الاقتصاد متثاقلا وتحمل الفلاح العبء وهو يزداد فقرا عن ذى قبل... وعن تعامل الحكومات مع الفلاحين ذكر: .. فلجأت الحكومة إلى وسائل القمع المختلفة، فاستخدمت الهراوات لإخضاعهم وبنادق البريطانيين لقمع مظاهراتهم. وشهدت سنوات ما بعد الحرب نشوب ثورات عنيفة فى الإقطاعيات الكبيرة، حيث هاجم الفلاحون الحراس وأضرموا النيران فى المكاتب واحتلوا الأرض وتسلحوا بالبنادق مطالبين الحكومة ببيع الأراضى لهم. (٣٤)

ثم أكمل د."السيد أمين شلبى" رصده لتطور حالة البؤس الذى عاشها الفلاح فقرا ومرضا ذاكرا وباء الملاريا من عام ١٩٤٢م وحتى ١٩٤٥م، ثم وباء الكوليرا عام ١٩٤٧م.

* * *

الزراعـــة

عاش الإنســان البدائى على الجمع والالتقــاط والصيد وعندما انتهى العصــر المطير بتوقف هطول الأمطار ومــن ثم بدأت النباتات تجف وأصبحت الغابات صحارى، هبط إلى أودية الأنهار. وهكذا فعل المصرى القديم ليســتقر فى وادى النيل، ومــن هنا بدأت الزراعة على ضفاف النيل. وأصبحت الزراعة من أقدم الحرف التى تعلمها المصرى بالفطــرة عندما اســتقر فــى وادى النيــل، وأتيحت له فرصــة مراقبة النباتــات البرية وهى تنمو وتكبر وتطــرح بذورها فى الأرض لتخرج نباتات جديدة، ثم هــداه تفكيره لتخزين الحبوب ليقوم بزراعتها فى الوقت الملائم لها ووفقا للمواسم الزراعية التى كانت ترتبط بالفيضان.

ومما ذكره ابن خلــدون فى مقدمته متحدثا عــن الزراعة كحرفة: أما الفلاحــة والصناعــة والتجــارة فهــى وجــوه طبيعيــة للمعاش، أما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات؛ إذ هى بســيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج إلى نظر أو علم ولهذا تنســب فى الخليقة إلى آدم أبى البشر فهو معلمها والقائم عليها.

وقــد كان من الطبيعــى أن تنعكس الطبيعــة الجغرافية على حياة الســكان ونوعيــة الحرف التى يمارســونها؛ ففى المناطق الســاحلية المطلة على البحرين الأبيض المتوســط والأحمــر، وكذلك البحيرات،

عمل السكان بالصيد وما يتعلق به من حرف صغيرة أخرى. وفى المناطق الجافة فى مناطق الصحراء الغربية والشرقية، كانت حياة البداوة والترحال من مكان إلى مكان آخر يتوافر فيه الماء وأماكن للرعى، فلم يكن هناك وقت لنشوء حرف تتطلب استقرارا دائما، ولكن كان هناك بعض الحرف البسيطة القائمة على استغلال صوف ووبر الأغنام وغيرها، إلى جانب مناطق الواحات التى يزرع فيها النخيل بصورة دائمة والذى يدخل فى حرف عديدة. مع ملاحظة أنه ليس بالشرط أن تكون عملية تصنيع الجريد وسعفه فى أماكن تواجده نفسها. أما فى وادى النيل و المناطق التى يصلها ماؤه عمل المصرى بالزراعة مرتبطا بالنيل وفيضانه، فتأصلت فيهم الشخصية المتميزة التى ترتبط بالنيل. وكما ذكر "ت ج جيمز" أنه على مر العصور أصبح نمط الحياة المصرية المعتاد والمتوارث هو النمط الزراعى الذى اعتبروه النمط النموذجى للحياة فى الدنيا والآخرة التى تمنحه الخلود الذى يتطلع إليه كل مصرى. وكما ارتبطت حياة المصرى بالنيل وبالزراعة، أصبحت طقوس الزراعة تدخل ضمن النقوش المقبرية وعلى جدران المعابد. بل كان للزراعة آلهة، فأوزوريس إله الزراعة والخضرة والبعث المرتبط بفيضان النيل، و إيزيس رمز الفلاحة المصرية والسحر والجمال. والإلهة "سخت" إلهة للحقول، ويتم تصويرها وهى تحمل مائدة قرابين عليها البيض والطيور وزهور اللوتس وأسفلها زهور اللوتس والسمك. وهناك إله للحبوب، يبدو فى النقوش متوجا بسنابل القمح

يحمل فى يديه حزمتين من القمح. وإله فيضان النيل "حابى" نشاهده وهو يحمل مائدة القرابين التى بها خيرات الحقل ونهر النيل. بل إن البعض أرجع شكل (النورج) الذى يظهر فى مشاهد الزراعة، إلى عقائد مصرية قديمة متعلقة بالإخصاب وآلهة الخصب.

وفى كتاب الموتى يظهر الدور الذى كانت عليه الزراعة فى الحياة المصرية، حتى أصبحت أيضا الحياة المثلى فى الدار الآخرة. فكان المصرى يتصور أنه سوف ينتقل ليعيش فى حقول البوص والعشب فى الجنة التى هى مصر أخرى يرويها نيل ثان وتجرى فيها الأنشطة الزراعية العادية من حرث إلى حصاد كما كان الحال فى الدنيا ولذلك اختصت بالذكر عند الحساب عندما يقف الميت بين يدى أوزوريس. وفى نسخة من (كتاب الموتى) عثر عليها فى مقبرة آنى، نجد بعض العبارات التى يرددها الميت أمام الإله وهيئة محكمة الإله المكونة من ٤٢ محلفا لإبراء ذمته: لم أفرط فى الأرض. ولم أشق طريقا فى أرض الغير، ولم أبعد المواشى عن مرعاها، ولم أسىء استغلال المياه ولم أحبس الماء الجارى..

"..بل كان انتظام الإنتاج الزراعى أهم عناصر الاقتصاد المصرى القديم. وكان انتظام الدورة الزراعية فى مصر القديمة أوضح منه فى أى بلد آخر لارتباطه بالفيضان الذى يمكن التنبؤ به بمراقبة ارتفاع منسوب المياه، وبالتالى يمكن التنبؤ بالناتج من الزراعة. والناتج الزراعى الجيد يؤكد لهم – أهل مصر– رضا الآلهة عن هذا البلد الطيب.."(٣٥).

وكانت المحافظة على الأرض الزراعية ذات أهمية أساسية فى الاقتصاد القومى كما كان تطبيق سياسة زراعية سليمة هو أساس تحقيق التنمية الزراعية الشاملة فى الحياة الأرضية، وانعكس أثر هذا الاعتقاد على شئون الحياة الآخرة فأصبحت الفلاحة من حرث وحصاد حى هى أسلوب الحياة فى دار البقاء. (٣٦)

كل هذا جعل من مصر ملجأ تأتى إليه القبائل المحيطة فى أيام القحط طلبا للمرعى لأغنامهم ومكانا يصلح للعيش لهم وأولادهم وفى ظروف القحط والمجاعة. وهكذا فعل يعقوب عليه السلام عندما أرسل بنيه يكتالون من مصر، وبقى فيها يوسف وأصبح أمينا على خزائنها. وقبل ذلك فى ظروف مماثلة توجه إبراهيم إلى مصر عندما أصاب القحط البلاد.

بل إن حالة الرخاء طالت الغرباء "كانت مصر تكرم الوافدين عليها، ومن الأدلة على ذلك استيطان عدد كبير من الآسيويين بمصر فى فترات معينة. فعملية التسلل إلى مصر عملية قديمة، حتى إن الكثير من الوافدين – المتسللين – فضلوا البقاء بمصر بعد زوال أسباب الأزمة. واحتلال الهكسوس لمصر فى عصر الانتقال الثانى هو أحد مظاهر التسلل. وقد استمر تدفق المهاجرين... وقد كتب أحد ضباط الجبهة إلى رئيسه أثناء حكم مرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة (١٢٢٤ – ١٢١٤ ق.م. تقريبا) تقريرا أشار فيه إلى شىء من هذا القبيل: رسالة أخرى إلى سيدى القائد: لقد انتهينا من السماح للبدو من قبل أدوم

Edom باجتيـــاز قلعة مرنبتاح – حتب حر ماعت – فليعش فى رخاء وصحـــة – الواقعة فى ثيكو، لزيـــارة بحيرات بيثوم لمرنبتاح – حتب حر ماعت لكى ننقذ حياتهم وحياة ماشيتهم من الموت، حسب العطف السامى من الفرعون، فليعش فى رخاء وصحة. (٣٧)

وكل هـــذا لم يكن ليحدث لـــولا أن المصرى القديـــم اهتم بالزراعة وتهيئة الأرض ورســـم حدودها، وســـجل كل ذلك على جدران المعابد والمقابر. ولذلك حرص (عنخ توى) حاكم الإقليم الثالث عشـــر بالصعيد فى نقوش مقبرته أن يبين كيف كان حسن الإدارة لشئون الرى:

"..قمـــت ببناء نصب فى ســـوت، أنشـــأت قناة عرضهـــا ١٠ كوبت قطعتهـــا مـــن الأراضـــى المحروثة، وســـويت مصبها جيدا. أنعشـــت مدينتى، وجعلت العامل البســـيط يأكل الشعير. أنشأت خندقا للمدينة. كانت مصر العليا حالها سيئة لا يرى فيها الماء.. قمت بتثبيت الحدود وبصمتهـــا بخاتمى. حولت الأراضى العالية إلـــى برك للصيد، أوصلت الفيضـــان للأماكن العالية القديمة، وفرت الرى للأراضى الزراعية. هذا بينما كان كل شـــىء حول إقليمى عطشـــان اســـتفاد كل فرد من الفيضان إلـــى آخر المـــدى. ووصل الماء إلـــى الجيران وكان كل فـــرد عطوفا مع الآخرين.. (٣٨)

ومن المدهش أن هذا الاهتمام بإنشاء القنوات الذى تحدث عنه عنخ توى، تحدث عنه أيضا علماء الحملة الفرنسية، ففيما جاء فى موسوعة وصـــف مصر (الجزء الرابع) بعد أن وصـــف "ب س جيرار" نظام الرى

يستدرك قائلا: ومن الميسور أن نستنتج مما سبق أن تطوير نظام الرى فى مصر لا يعتمد على العمق الذى حفرت عليه الترع بقدر ما يعتمد على العناية بالجسور التى تقطع الوادى بشكل عرضى...

ومن الصور المقبرية لبعض النبلاء فى عصر الأسرة الثامنة عشرة نجد الاهتمام الواضح بالنشاط الزراعى والزراعة التى كانت تتأثر بالدورة الزراعية فى هذا الوقت والتى كانت "تنقسم إلى ثلاثة مواسم كل منها أربعة أشهر: موسم الصيف وهو موسم الفيضان (آخت) وفيه تكون الأراضى مغمورة بالماء، وتتعطل الزراعة، وبعد توقف الفيضان تكون الأرض صالحة للزراعة وهكذا يبدأ موسم الزراعة (يريت) والذى كان يبدأ غالبا من منتصف أكتوبر إلى منتصف فبراير. وفيه تتركز أغلب مهام عملية الزراعة وأشقها والمتمثلة فى إعادة تخطيط وشق الأراضى التى غمرتها مياه الفيضان إلى جانب عمليات الحرث والتسوية وبذر البذور، ثم بعد ذلك يأتى موسم الحصاد (شيمو). (٣٩)

وظل التقسيم نفسه للسنة الزراعية إلى ثلاثة مواسم على حاله مع بعض التغيير حتى مجيء الحملة الفرنسية. ففى موسوعة وصف مصر (الجزء الرابع) جاء أن هذا التتابع فى الزراعة شكل تقسيما طبيعيا للسنة الزراعية فى ثلاثة مواسم يبلغ كل موسم أربعة أشهر. ويتفق الموسم الأول مع مدة الزراعات الشتوية؛ مثل البياتى وهى التى لا تحتاج لرى منذ زراعتها حتى حصادها لأنها مغمورة بماء النيل، كذلك الشتوى، ويتفق الثانى مع فترة المحاصيل الصيفية؛

القيظـى أو الصيفى والتى تـزرع فى أثناء الفترة التـى تكون فيها مياه النيل فى أقصى انخفاض لها وهى تحتاج دوما للرى، أما الثالث فيتفق مع محاصيـل الخريف: الدميرى وهى التى تـزرع فى أرض منخفضة والنبارى التى تزرع فى أراضى عالية لابد من ريها.

وفى مقبرة (باحرى) تظهر مشـاهد الحصاد فى منظرين، و يظهر الفلاحون وهم يجمعون المحاصيل بجد ونشاط، بينما المنظر السفلى من مناظر الحصاد يظهر ضم المحاصيل والأعلى لدرس الحبوب وتخزينها. ويظهر الشـعير والكتـان فى الصورة. كان الشـعير يضم بحشـه فوق الأرض مباشـرة بمناجـل متقنة الصنع عرفها المصريـون منذ العصور السـحيقة وكانوا يصنعونها من الخشـب الموصول به شفرات صوانية قصيرة مشطوفة مسنونة أو مشرشرة ثبت أنها ذات كفاءة عالية فى شن المحاصيل وتعطى حشا مقوسـا. ومما هو مكتوب فوق المشهد نص من أغنيـة يرددها العمال الذين يحصدون الشـعير: (اليوم جميل، اذهبوا إلى الأرض، لقد هبت الرياح الشـمالية، السـماء فى صالحنا، والعمل يربطنا).

ويشير "جيميز" إلى تكرار مشـاهد الزراعة والحصاد فى المشاهد المقبرية وخاصة "منذ الأسـرة الخامسة فقد صارت الأنشطة الزراعية مـن الزخـارف المتكـررة والنمطية فى القبـور. واسـتمر ذلك حتى الدولة الحديثة وما بعدها. وكانت الموضوعات المسـتخدمة هى انتاج

المحاصيل الرئيسية من حبوب وكتان، الأولى يصنع منه الخبز والجعة والثانية يصنع منها اللباس. وهذه المحاصيل نفسها هى المصورة فى الفصل ١١٠ من كتاب الموتى" (٤٠)

ويظهر هذا وبجلاء نظرة المصرى القديم والتى تتضح فى نقوش المقابر أنه ينظر إلى الحياة الأخروية على أنها امتداد للحياة فى الدنيا.

أما رمسيس الثالث فقد كان اهتمامه برعاية الحدائق والمشاتل والإكثار منها قائلا: لقد أخصبت الأرض كلها بزراعة الأشجار وغرس النباتات، بحيث أصبح فى استطاعة الناس الجلوس تحت ظلالها. وقد شيد حدائق كثيرة فى مقر عرش جده العظيم تتخللها طرق تؤدى إلى الريف زُرعت بالكروم وأشجار الزيتون وعلى جانبى الطريق المقدس انتشرت الزهور اليانعة. وفى "أون" أمر الملك بتنظيف بحيرات المعبد المقدسة برفع القاذورات التى تراكمت منذ وجدت الخليقة وجدد غرس الأشجار والنباتات فى كل مكان وزرع البساتين اليانعة بالكروم ليقدم للمعبود "توم" النبيذ والمشروبات الروحية كما زرع أشجار الزيتون التى تنتج أجود الزيوت المصرية "لتبقى شعلة النيران متقدة فى معبدك المقدس"... ثم يقول: كما عنيت بغرس أوراق البردى على نحو ما تزرع فى مستنقعات آخبيت (حيث عاش حورس طفولته) لقد عملت على ازدهار أشجار الأخشاب المقدسة فى معبدك وغرستها فى الأماكن نفسها التى اقتلعت منها وعينت البستانيين للعناية بها حتى يقطر منها الخمر للشراب والقرابين.. (٤١)

وفى طيبة كانوا يحرصون على زرع بعض الأشـجار فى فناء المنزل أو أمام واجهته، ففى منزل نب آمون تظهر نخلتان مثقلتان بالبلح وكما تظلل منزل نخت نخلة وشجرة جميز.

وقد جمع أنا Anna فى حديقته كل الأشـجار التى تنمو فى وادى النيل مثل النخيل ونخيل الدوم وشـجر جوز الهند التى كانت تسـمى نخيل الكوكو وشـجرة الجميز وشـجرة زيت النخيل وشـجر العناب واللبـخ والطلح والرمان والسـرو والأثل والصفصاف وأنـواع أخرى من الأشجار لا نعرف مدلولها وتبلغ ثمانية عشر نوعا. (٤٢)

وفـى عبـارات كتبها أحـد الكتبة لسـيده يأخذ فى سـرد قائمة بممتلكات السيد الزراعية، وفى كل مرة يعلن سلامة ما يسرده وحالته الجيدة وكل ذلك لأن الكاتب يحسن الإدارة:

محصول أراضى التـاج – أرض فرعون – فليعش فى رخاء وصحة، والتى تقع تحت إشراف مولاى (السـيد) يجرى حصادها بعناية تامة واهتمـام بالغ. وأنا أسـجل كل أحمال الشـعير المحمولة على الحمير والتى يجـرى ضمها كل يوم بالمنجل، وأرتب لها وسـيلة النقل. وقد جهزنا أرضية الدراس، وسوف أرتب فيها مكانا يتسع لأربعمائة حمل حمار، وفى الظهيرة عند اشـتداد الحر أعهد إلى الحصادين – أصحاب المناجل – بلقط الحبوب السـاقطة، فيما عدا الكتبة والنسـاجين الذين أعطيهم جرايتهم من ناتج الحبوب الساقطة أمس.. (ثم ينهى كلامه): لن تجد بينهم من يجرؤ على الشكوى لسيدى مدعيا أننى حرمته الطعام

ودهون العطر. وانا أراقبهم بعناية فائقة. انظر إنى أكتب هذه الرسالة لسيدى للإحاطة... (٤٣)

أمـا عن نظام الزراعة فى مصر، وكما تذكـر المراجع المعنية بأمر الزراعة، فقد اعتمدت الزراعة فى مصر – منذ عصور ما قبل التاريخ – على مياه النيل وغمرها السـنوى المستمر للأراضى المصرية؛ بالفيضان الذى أمدهـا بالمياه والغرين (الطمى). وهكـذا، كانت الأراضى تروى سـنويا بانتظام عـن طريق ما يعرف بنظـام "رى الحياض"؛ وهو نظام ينطوى على تقسيم الأراضى إلى حياض الذى هو عبارة عن إقامة حواجز طينية. وتنساب المياه من القنوات إلى الأحواض. وتحمل كل قناة الماء إلى نحو ثمانية من الحياض؛ الواحد تلو الآخر. وبهذه الطريقة، يزيد نصاب الأراضى الأقرب إلى شـاطئ النهر علـى تلك الأراضى التى هى أبعـد. ومع الزمـن، تطورت طرق الرى فى مصـر القديمة حتى وصلت إلى الـرى الصناعى، بهدف الحفاظ على الميـاه الفائضة عن الحاجة، بعد الفيضان، فى أحواض قريبة من شـاطئ النهر من أجل الاسـتخدام فى رى مزيد من الأحواض التى لم تصلها مياه الفيضان. وقد تحقق ذلك من خلال حفر مزيد من القنوات والجسور. ويعد الرى الصناعى إنجازا مصريا قديما تطلب التعاون الكامل بين الدولة والشـعب. ومنذ استقرار الإدارة المركزية للدولة، واصل قدماء المصريين تسـجيل منسوب مياه النيل فى سجلات رسمية. وتظهر أقدم السجلات لمناسيب الفيضان على حجر باليرمو، من الأسـرة الخامسة؛ ويحمل عدد ٦٣ سجلا لمناسيب

مياه النيل. وتواصل القيـاس، وتطور، حتى عام ٧١٥ الميلادى؛ حين بنـى مقياس النيـل أو مقياس الروضة، على جزيرة الروضة. واسـتمر استخدام هذا المقياس حتى بداية القرن العشرين. وكان لرصد منسوب مياه النيل تأثير على تقدير قيمة الضرائب والمساحات التى يمكن ريها خلال العام. وكانت الأقاليم مسئولة، عقب الفيضان، عن إدارة القنوات والتـرع؛ بينما أجريت عمليات قياس مسـاحات الأراضى ومناسـيب المياه، على المستوى القومى.

وعندما جاءت الحملة الفرنسـية لم يكن حال الفلاح يختلف كثيرا عمـا كان عليه منـذ أن عمل بالزراعة فتذكر موسـوعة وصف مصر "أن خصوبة مصر لا تسـاهم فى كثيـر من رفاهية أبنائهـا، ..ويعود ذلك إلـى أن الفلاحين ليسـوا هم المالكيـن لأرضهم، وإلـى أن الأرض فى ظـل حكومة المماليـك كانت تئن تحت وطأة كل أنـواع الضرائب التى يمكن أن تتحملهـا..." وبعد أن ورد ذكر الكثير عن صراعات المماليك واستنزافهم للصعيد الذى كانوا يفرون إليه وقت النزاعات، جاء وصف حال الفلاحين: وهكذا أيضا ظل أبناء الريف هناك يعيشـون فى أقصى حالات الضنك فالقرى مكونة من أكواخ من الطين، تحيط بالقرى خرائب تعلن تناقص السكان، ويعيش هؤلاء على خبز الذرة وبعض الخضروات وليـس لهم من أثاث إلا عدد ضئيل من الأوانى الفخارية وبعض الأوانى الفقيرة، ولا يجدون إلا بشق الأنفس وسيلة لتجديدها من حاصل عملهم هذا إن تبق لهم شىء منه بعد دفع الضرائب.."

ومـن المحاصيـل الزراعية التـى كانت تزرع ورصدتها موسـوعة وصف مصر، القمح، الذرة، الذرة الشـامية، الأرز، الشعير، العدس، والحمـص، والترمـس، الفول، البصل والبطيخ والشـمام، والبرسـيم والحلبة والبسلة، السلجم الخس السمسم، القرطم، الكتان القطن النيلة قصب السكر التبغ أشجار الورد زراعة النخيل والكروم وبعض الأشجار الأخرى. (٤٤)

وعن زراعة النخيل تذكر موسـوعة وصف مصر أيضا كيف أن النخيل ينتشـر بشـكل عام فى كل مصر من جنوبها إلى شمالها. وتذكر أيضا أن كل قرى مصر محاطة بأشجار النخيل التى تغطى المرتفعات التى بنيت هذه القرى فوقها. وحيث تحتفظ هذه الأشـجار بأوراقها طيلة العام فإن كل قرية، وبخاصة قرى الدلتا، تبدو عن بعد كما لو كانت أيكة واسعة.. وبعد الحديث عـن أنواع النخيل وطرق زراعتها والأماكن التى تشـتهر بـكل صنف وكيفية اسـتغلال محصول البلح بالتجفيـف وعمل العجوة وغيره، يجمل الكاتب فوائد النخل هكذا: "ومن بين كل الأشـجار التى تنمو فى مصر، فإن النخلة هى الشجرة التى يحصل المصريون منها على أكبر النفع فى عمليات البناء وفى الاقتصاد المنزلى. فجذوع هذه الأشجار تستخدم عوارض وكمرات لسقيفات مختلف البيوت، ويصنع من مختلف أجزاء سـعفها الأقفاص والقفف وباختصار معظم الأثاثات والأوانى التى يسـتخدمها سـكان الريف، وأخيرا يسـتخدم هذا النوع من الضفائر من الألياف الغامقة التى تغطى بداية أغصان السعف فى صنع الحبال".

ولم يكن بالغريب أن يلاحظ علماء الحملة الفرنسية أهمية النخيل لدى المصريين فى وقت مجيئهم إلى مصر، وقد توارث المصريون هذا الاهتمام منذ القدم وقامت على النخيل صناعات وحرف استمرت وتطورت. فمنها ما قام على ثمار البلح، ومنها ما قام على الجريد، ومنها ما قام على سعف النخيل، ومنها ما قام على (ليف) النخيل وهو ماقصده العالم الفرنسى بقوله (الألياف الغامقة) إلى جانب جذوع النخيل كما ذكر سابقا. وهذا ما ذكره ابن القيم فى "الطب النبوي" عندما عدد فوائد النخيل : وثمر النخيل يؤكل رطبا ويابسا، وبلحا ويانعا، وهو غذاء ودواء وقوت وحلوى، وشراب وفاكهة، وجذوعها للبناء والآلات والأوانى، ويتخذ من خوصها الحصر والمكاتل والأوانى والمراوح، وغير ذلك، ومن ليفها الحبال والحشايا وغيرها، ثم آخر شيء نواها يستخدم علفا للإبل، ويدخل فى الأدوية والأكحال، فضلا عن حسن هيئتها وبهجة منظرها، وحسن ثمرها، وجمال صنعته وبهجته، ومسرة النفوس عند رؤيته، فرؤيتها مذكرة لفاطرها سبحانه وتعالى، وبديع صنعه، وكمال قدرته، وتمام حكمته، ولا شيء أشبه بها من الرجل المؤمن، إذ هو خير كله، ونفع ظاهر وباطن.

* * *

النخلة بين العقيدة والتراث

النخل

هو شجر التمر واحدته نخلة، والنخيل اسم جمع لا جمع نخلة، وهو يُذكر ويؤنث فنقول هو النخل وهى النخل، أما النخيل فمؤنثه. وهى من النباتات ثنائية المسكن، أى إن هنالك نخلة تحمل أزهارا ذكرية وتسمى النخلة الذكرأو الفحل، ونخلة أخرى تحمل أزهارا أنثوية وتسمى النخلة الأنثى وهى التى تُثمر. ونخلة التمر لها برعم طرفى ضخم واحد فقط موجود فى أعلى الساق الوحيد. وإذا أصاب ذلك البرعم الوحيد تلف فإن النخلة تموت. هكذا البرعم الطرفى بمثابة الرأس للإنسان لا حياة له بدونه. وكما جاء فى كتاب "النبات والحيوان" أن هناك سبعة قواسم مشتركة بين النخلة والإنسان: (فهى ذات جذع منتصب، ومنها الذكر والأنثى، وإنها لا تثمر إلا إذا لقحت، وإذا قطعت رأسها ماتت، وإذا تعرض قلبها لصدمة قوية هلكت، وإذا قطع سعفها لا تستطيع تعويضه من محله كما لا يستطيع الإنسان تعويض مفاصله، والنخلة مغشاة بالليف الشبيه بشعر الإنسان). والنخلة هى الشجرة الوحيدة من بين الأشجار الذى لا يتساقط ورقها. وذكرت فى القرآن نصّا فى ١٦ سورة، وفى عشرين آية. فقد ورد ذكرها فى سورة البقرة آية (٢٦٦)، الأنعام آية (٩٩) و(١٤١)، الرعد آية (٤)، النحل آية (١١) و(٦٧)، الإسراء آية

(٩١)، الكهف آية (٣٢)، مريم آية (٢٣) و(٢٥)، طه آية (٧١)، المؤمنون آية (١٩)، الشعراء آية (١٤٨)، يس آية (٣٤)، ق آية (١٠)، القمر آية (٢٠)، الرحمن آية (١١) و(٦٨)، الحاقة آية (٧)، عبس آية (٢٩).

كذلك ذكرت فى السنّة فى أكثر من ٣٠٠ حديث، منها: قال رسول الله ﷺ:

(١) مثل المؤمن كشجرة لا يتحاتُّ ورقها (أى لا يسقط) قال ابن عمر: فوقع فى نفسى أنها النخلة وعنده رجال من العرب فذكروا الشجرة فما أصابوا حتى قال رسول الله ﷺ: هى النخلة.

(٢) وفى الحديث (خير المال سكة مأبورة) أى سكة نخل مصلحة.

(٣) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أو جاع أهله، قالها مرتين أو ثلاثا.

(٤) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ، لا يجوع أهل بيت عندهم التمر.

(٥) ومما نقل عن الرسول ﷺ قوله: أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم.

(٦) وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، إذ أتى بجُمار نخلة، فقال النبى ﷺ: إن من الشجر

شـجرة مثلها مثل الرجل المسلم لا يسـقط ورقها، أخبرونى ماهى؟ فوقع الناس فى شـجر البـوادى، فوقع فى نفسـى أنها النخلة، فأردت أن أقول: هى النخلة، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنا، فسـكت، فقال رسـول الله ﷺ: هى النخلة، فذكرت ذلك لعمر، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا.

(٧) وأيضا هناك قصة حنين جذع النخلة للرسول، فقد روى أن رسول الله ﷺ يخطـب على جذع، فلمَّا صُنِع له منبرا ترك الجذع و صعد المنبر وراح يخطب، فإذا بالجذع يئن أنينا يسـمعه أهل المسجد جميعـا، فنزل من علـى خطبته وقطعها وضمّ الجـذع إلى صدره وقال:

هدأ جذع، هدأ جذع، إن أردتَ أن أغرسك فتعود أخضرا يؤكل منك إلـى يوم القيامة أو أدفنك فتكـون رفيقى فى الآخرة. فقال الجذع: بل ادفنى وأكون معك فى الآخرة.

ومما جاء فى الصحيحين: إن قامت السـاعة وفى يد أحدكم فسـيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها.

وفى الكتب المقدسـة جاء ذكر النخيل أيضـا. فعند خروج اليهود من أراضى مصر ودخولهم صحراء التّيه فى شـبه جزيرة سـيناء حطوا رحالهم فى واحة تدعى (إيليم) التى وجدوا فيها اثنتى عشر عينا للماء وسبعين نخلة.

ففى سـفر الخروج جاء "ثم بلغوا إيليم حيث كانت اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة فخيموا إلى جوار عيون الماء" (٤٥)

وفـى المزامير، يأتى تشـبيه الصديـق بالنخلـة: الصديق يزهو كالنخلة... (٤٦)

رواية غريبة فى تسمية النخل:

جاء فى كتاب شـجرة العذراء، رواية غريبة فى تسمية النخيل: روى العلامة الجليل السيد نعمة الله الجزائرى فى الأنوار النعمانية: إن الله أمـر الملائكة فوضعوا التراب الـذى خلق منه آدما فى المنخل ونخلـوه، فمـا كان لبابا صافيا أخذ لطينة آدم، ومـا بقى فى المنخل خلـق الله منـه النخلة وبه سـميت لأنهـا خلقت من تـراب بدن آدم وهـى (العجوة). وكان آدم يأنـس بها فى الجنة ولما هبط إلى الأرض استوحش بمفارقتها وطلب من الله سبحانه وتعالى أن ينزل له النخلة فأنزلها وغرسـها فـى الأرض، ولما قربت وفاته أوصـى إلى ولده أن يضع معه فى قبره جريدة منها فصارت سـنّة إلى زمان عيسـى عليه السلام. ثم اندرسـت فى زمان الفترة فأحياها النبى ﷺ. وقال: إنها ترفع عذاب القبر ما دامت خضراء، وقد روى الجمهور عن النبى ﷺ أنـه قال للأنصار: خضروا صاحبكم فما أقـل المخضرين يوم القيامة. وقالوا: وما التخضير؟ قال ﷺ: جريدة خضراء توضع من أصل اليدين إلى أصل الترقوة. (٤٧)

وفى بابل كانت النخلة شجرة مقدسة تزين ردهات المعابد الداخلية، ومداخـل المدن، وعـروش الملوك. وكان يتم تصويـر "إله النخل" على

هيئة امرأة ينتشر على أكتافها السعف كالأجنحة. وجاء فى شريعة حمورابى عدد من النصوص لحماية زراعة النخل. وهناك مادة تنص على تغريم من يقطع نخلة واحدة بشىء من الفضة، كما أن هناك مواد لتنظيم زراعة وبيع وشراء وتلقيح النخيل. كما كان البابليون يستفيدون من التمر ونخله فوائد كثيرة وقد أحصيت فوائد النخيل فذكروا منها ٣٦٥ فائدة. كما تصف المصادر المسمارية أصنافا كثيرة من التمر تتجاوز السبعين صنفا. كما أدخل البابليون والآشوريون التمر فى بعض الوصفات الطبية، وكان البابليون يحضرون شرابا من نسغ النخلة (النسغ بضم النون وتسكين السين المهملة – ماء يخرج من الشجرة إذا قطعت)، يسمى شراب الحياة.

وعرفت مصر النخيل منذ عصور ما قبل التاريخ، وكان لها مكانة خاصة، فقد عثر الدكتور (رين هارت Dr. Rein Hardt) فى مقبرة بجهة الرزيقات قرب أرمنت على مومياء من عصر ما قبل التاريخ ملفوفة فى حصير من سعف النخل.. كما عثر على نخلة صغيرة كاملة بإحدى مقابر سقارة حول مومياء من عصر الأسرة الأولى (حوالى ٣٢٠٠ ق.م.).

وظهرت أشجار النخيل فى نقوش قدماء المصريين فى مقابرهم ومعابد الآلهة حيث كانت النخلة هى نبات أوزوريس وقربانا للآلهة. واستخدمت أجزاؤها فى التحنيط ودفن المومياوات التى وجد بعضها ملفوفا فى حصير من السعف. واستخدموا جذوعها فى بناء منازلهم التى كانوا يستخدمون فيها الطوب اللبن، ودخل سعفها فى صنع

السلال والأوعية المختلفة التى يحتاجونها فى حياتهم. و صنعوا أيضا من السعف أكاليل يحملونها فى طقوس الدفن أو يضعونها فى المقبرة. وهكذا ارتبطت النخلة بالحياة والموت أيضا. وتوارث أقباط مصر المسيحيون صنع الأكاليل من السعف إلى الآن حيث تصنع الصلبان من السعف فى أحد السعف فى ذكرى دخول السيد المسيح أورشليم عندما اصطفت الجموع على جانبى الطريق الرئيسى، وبطوله، يمجدون الله، ويلوحون بأغصان النخيل. واليوم فى الاحتفال بالمناسبة نفسها يجلس بجوار الكنائس بعض الحرفيين يصنعون أشكالا فنية من سعف النخيل للصليب وغيره. كذلك فى عيد الغطاس – منذ سنوات – كانت تصنع الصلبان من الجريد وبها أماكن لتثبيت الشموع، ويطوف الصغار من المسيحيين والمسلمين شوارع القرى التى لم تكن الكهرباء دخلتها بعد منيرين الطرقات. كذلك يحكى أن أهل يثرب خرجوا للقاء رسول الله ﷺ عند هجرته إليهم بالغناء، يرفعون أغصان الأشجار وجريد النخيل، وإلى اليوم يستخدم المسلمون الجريد الأخضر فى الجنازات بوضعه مع المتوفى أو على قبره.

وهكذا، لم تقتصر نظرة القداسة والتبجيل للنخيل على عصر بعينه أو قوم دون آخرين، فشريعة حمورابى كانت تفرض غرامة كبيرة على من يقطع شجرة نخيل. وهى سيدة الشجر عند العرب، وزخرف الساميون بها معابدهم.

"واستعمل سعفها الأخضر فى استقبال الأعياد والأبطال والملوك لأنه علامة اليمن والبركة والسعادة والفرح وقد عثر على صور السعف

فـــى النقود القديمة (كنقود العبرانيين) الذين لا يقل احترامهم للنخلة عنـــد العرب، وقد ربح يهود الحجاز أرباحا طائلة من زراعة النخيل، ومـــن أجل الفوائد الجمة التى حصل عليها من النخلة قدماء الســـاميين قدسوها وعدوا ثمرها (التمر) مقدسا شافيا". (٤٨)

* * *

النخيل عادات وسياسة

ولأهمية النخيل وقـدم تواجده، ارتبطت به بعـض التقاليد والعادات الشـعبية. فعلى سـبيل المثال، قلب النخلة (الجُمار) ارتبط بالكـرم، فالذى يقدم الجمار لضيفه وكأنه ذبح النخلة ذاتها إذ لا حياة لهـا بعد نـزع الجمار مـن رأسـها. وزارع النخيل سـواء فى الريف أو الباديـة لا يذبـح نخلته إلا لعزيـز. كذلك يباع لقـاح النخلة الذكر كمقوى جنسـى للرجال بخلطه بعسـل النحل، بينما فى بعض الأماكن تتناوله النسـاء مذابا بالماء من أجل زيادة الخصوبة والإنجاب. كذلك دخلت النخلة فى أساليب الاحتجاج على الحاكم. فمما تناقلته القصص الشعبية، كيف أنه عندما زاد ظلم الحاكم بأمر الله الفاطمى، وكان سببا لإحراق الفسـطاط. صنع أهل الفسـطاط تمثالا من جريد وورق وألبسوه خفـا وبعض الملابس ليبـدو كامرأة، ثم وضعوا فى يـد المرأة التمثال ما يبدو أنها ورقة تحمل شكوى أو مظلمة كعادة الناس وقتها، ثم قاموا بوضعه فى الطريق الذى سيمر فيه الحاكم. فلما رآها الحاكم غضب لأنه أصدر من قبل أمرا بمنع النساء من الخروج فى الطرقات. وعندما اقترب وأخذ الورقة، وجد فيها سـبابا لم يتحمله، فأمر بالقبض على المرأة، فاكتشـفوا أنها من جريد النخيل، وعلـم أنها من عمل أهل مصر نكاية وسـخرية منه، فاستشاط غضبا وأمر جنوده بإحراق المدينة، فأحرقوا ثلثها ونهبوا نصفها.

وذكر ابن الأثير فى الكامل فى كلامه عن قتل الحاكم بأمر الله وسيرته أنه وقعت قصة مشابهة لهذه القصة فى فترة حكم أبيه العزيز: قيل إنه ولى عيسى بن نسطورس كتابته، واستناب بالشام يهوديا اسمه منشا، فاعتز بهما، وآذوا المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة جعلوها فى يد صورة عملوها من قراطيس، وكتبوا فيها: بالذى أعز اليهود بمنشا وبعيسى بن نسطورس وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتى؟ وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز، والرقعة بيدها، فلما رآها أمر بأخذها، فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم ما أريد بذلك، فقبض عليهما وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليهودى شيئا كثيرا.

ولربما يكون ذلك بداية صنع (خيال المآتة) أو فزاعة الطيور التى يضعها الفلاح وسط حقله ليخيف بها الطيور فلا تسطو على مزروعاته. ويصنع الفلاح خيال المآتة من جريدتين، الأولى قائمة وتكون طويلة، والأخرى أقصر وتثبت بالخيوط على الجزء الأعلى من الجريدة القائمة مثل الصليب، ويلبسه من ملابسه القديمة ويصنع له ما يشبه الرأس مستخدما بعض القش وقطعة قماش تبدو وكأنها المنديل الذى يربط به الفلاح رأسه.

كذلك دخل النخيل مجال النضال السياسى عن طريق الفن، "فسيد درويش" بعد أن قام الاحتلال الإنجليزى بنفى الزعيم سعد زغلول إلى جزيرة سيشيل، ومنعت السلطات البريطانية مشايخ القهاوى والمسارح والمطربين من تقديم أى أغنية أو مونولوج عن سعد

زغلول، أو أى شىء وطنى، فى الوقت الذى كانت فيه الأغانى الوطنية هى ما يردده الشعب، وخاصة أغانى سيد درويش الذى غنى قوم يا مصرى، وبلادى بلادى، وإحنا الجنود زى الأسود. بل تم منع سيد درويش من الغناء وتهديده بالاعتقال أو القتل. ولكن سيد درويش لم يكن ليرضى بذلك فتحايل ولحن وغنى أغنية "بلح زغلول" ثم حولها لاستعراض غنته "الست نعيمة المصرية" و كأن الطقطوقة تتحدث عن بائع ينادى على بضاعته من البلح الزغلول. ولكن فهم المصريون ما أراد درويش من أغنية يا بلح زغلول، لتصبح الأغنية نداء على زعيمهم سعد زغلول رغما عن أوامر الاحتلال.

وكلمات الأغنية:

يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح يا بلح زغلول
يا زرع بلدى عليك يا وعدى يا بخت سعدى
زغلول يا بلح
يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح يا بلح زغلول
عليك أنادى فى كل وادى قصدى ومرادى
زغلول يا بلح
يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح يا بلح زغلول
الله اكبر عليك يا سكر يا جابر اجبر
زغلول يا بلح

يـا بلـح زغلـول يـا حليوة يـا بلـح يـا بلـح زغلول
ماعيتش أبكى وفيه مدبر مين بس ينكر زغلول يابلـح
يـا روح بلادك ليـه طـال بعـادك تعـا صـون بلادك
زغلـــول يـا بلـــح
يـا بلـح زغلـول يـا حليوة يـا بلـح يـا بلـح زغلول
سعـد وقـــال لـــى ربـى نصرنـــى وراجـع لوطنـــى
زغلـــول يـا بلـــح
يـا بلـح زغلـول يـا حليوة يـا بلـح يـا بلـح زغلول

وفى عـام ٢٠١١م بعد قيام ثـورة ٢٥ يناير، أوقف محافظ شـمال سـيناء، تصدير سعف النخيل إلى إسـرائيل حفاظا على ثروة النخيل فـى المحافظة. ذلك بعد أن صدرت عدة قرارات بمنع تصدير السـعف إلى إسـرائيل إلا إنها لم تفعل وصدرت شـمال سـيناء قرابة ٨٣٧ ألف سـعفة نخيل إلى إسـرائيل وأوربـا من خلال ١٤ مصـدرا، حصل كل مصـدر منهم علـى أكثر من ٥٩ ألف سـعفة، حيث يتـم التصدير إلى إسـرائيل عبر منفذ العوجة البرى بوسـط سـيناء، ويتم التصدير عبر بقيـة الموانئ إلى مختلـف دول العالم، حيث يعتبر سـعف النخيل السـيناوى من أجود السعف فى العالم. وتبلغ أشجار النخيل ٣٦٧ ألف نخلة بسـيناء. وإجمالى السعف الذى يسـتخدم فى الأعياد اليهودية "٣ أعياد مختلفة" يصل إلى قرابة ٣٧٠ مليون سعفة تستخدم فى الأعياد وجميع المناسبات اليهودية الدينية وتحتاج إسرائيل من سيناء ما بين

٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف سعفة سنويا ويسمح للشركات المصرية بالتعاقد مع الشركات أو الأفراد الإسرائيليين لتصدير سعف النخيل. (٤٩)

وفى وقت الحصار الإسرائيلى على غزة، تركزت الجهود الأهلية لتطوير الصناعات الصغيرة القائمة على منتجات النخيل، حيث يتم تدريب وتشجيع النساء على إنتاج التمور وغيرها من المنتجات للتغلب على نقص المنتجات الواردة من الخارج. ومن جانب آخر كوسيلة للحفاظ على التراث الذى يدعيه الاحتلال لنفسه. بل إن بعض المنتجات القائمة على بعض أجزاء النخيل تأثرت و اختفت بتغير النظام السياسى وما اقترن به من لبس مثل (الطربوش). ففى إدكو ورشيد حيث غابات النخيل التى تنتشر فى كل مكان إلى اليوم، كانت القرويات فى القرى المجاورة يصنعن من السعف الأبيض الذى يوجد فى الجريد حديث النمو، "خوص الطرابيش"، وكعادة الحرف التى لا تحتاج أماكن خاصة للمزاولة، كانت هذه الحرفة تنتقل بصورة تلقائيا من الجيل الأكبر من النساء إلى الفتيات، وهكذا إلى أن بطل لبس الطربوش ثم تدهورت هذه الحرفة، وبقيت مجرد ذكرى.

وهناك أيضا مناسبات اندثرت وكانت مرتبطة بثمار بلح النخيل، فيذكر كبار السن أنهم كانوا يحتفلون بعيد اسمه (عيد التمر) وفيه يسير موكب الاحتفال يتقدمه شيخ كبير على ظهر حماره يلبس على رأسه طرطورا طويلا ويقوم الناس من خلفه بدق الدفوف وإظهار فرحهم بالعيد.

ومن طريف الحكايات القديمة: أن أحدهم سأل يهوديّا من العراق:

س – ما هى أهم الأثمار عندكم؟

جـ – التمر.

س – ثم ماذا؟

جـ – التمر أيضا.

س – وكيف ذلك؟

جـ – لأن النخل نستظل بسعفه ونصنع من جذوعه سقوف وأعمدة بيوتنا، ونتخذ منه ومن جريده وقودنا، ونصنع منه الأسرّة والحبال وسائر الأوانى والأثاث. ونتخذ التمر طعاما مغذيا، ونعلف بنواه ماشيتنا، ونصنع منه عسلا وخمرا.

* * *

نخيل البلح قيمة وفائدة وعلاج

مما يدعو إلى الاهتمام بأشجار النخيل، هو أن كل جزء فى النخلة له فائدة واستخدام، ثمارها، ليفها، ساقها، سعفها، جريدها، وخوصها. فثمرها غنىّ بكلّ مقومات الغذاء اللازمة للإنسان، من ماء ومعادن وأملاح وفيتامينات وسكريات وغيره. كذلك البلح والتمر من الأطعمة سهلة الهضم سريعة الامتصاص والتى تمد الإنسان سريعا بالطاقة مع احتوائها على الدهن والبروتين والمعادن والألياف والماء. مع احتوائها على بعض الفيتامينات التى تحمى الإنسان من أمراض سوء التغذية. يؤكل جُمَّار النخيل فيمد الإنسان بالسكريات والدهن والبروتين والأملاح المعدنية والفيتامينات والألياف. وردت صفات ثمرات النخيل وفوائدها الغذائية والعلاجية فى السنة النبوية المطهرة فى أحاديث ومواقف كثيرة منها:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: كلوا التمر على الريق فإنه يقتل الديدان فى البطن.

وقال: "خير تمراتكم البُرنىُّ، يذهب الدّاء." رواه الحاكم والجامع الكبير وصحيح الجامع.

وقال: "كلوا البلح بالتمر فإنَّ الشيطان يقول بقى ابن آدم يأكل الجديد بالعتيق" رواه ابن ماجة و الحاكم.

وقال: "أطعموا نساءكم التمر فإن من كان طعامها التمر، خرج ولدها حَلِيما" الجامع الكبير.

وقال: من تصبح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر (متفق عليه)

وقال: "من تصبح بسبع ثمرات، وفى لفظ من تمر العالية، لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر" (أخرجه البخارى ومسلم)

وقال: "إن فى عجوة العالية شفاء أو أنها ترياق أول البكرة. (رواه مسلم)

قال النووى: والعالية: ما كان من الحوائط والقرى والعمارات من جهة المدينة وهى جهة نجد، ومما ذكره ابن سينا فى كتابه القانون فى الطب: البلح جيد للثة الأسنان وهو يفرز البول، وإذا شرب بخل عفص منع سيلان الرحم ونزف البواسير وطبيخ البسر (وهو نوع من البلح) يسكن اللهيب مع حفظ الحرارة الغريزية، والإكثار من البسر والبلح يولد فى البدن أخلاطا غليظة.

ومما ذكره ابن البيطار فى كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية: التمر يسخن البدن، وهو صالح للصدر والرئة والمعى، يكبح الصداع، وأجود استعماله فى الزمان البارد، فإنه يستخصب عليه البدن، ويحسن اللون، ويزيد فى الباه زيادة كبيرة، ويستأصل أمراضا باردة إن كانت به.

وفى بلدان الخليج العربى، تستخدم الأزهار المذكرة والغلاف (الكروف) المحيط بها فى عملية إنتاج ماء الكُروف. ومما تذكر

المراجع بخصوص إنتاج ماء اللقاح: "ويتميز ماء اللقاح برائحة عطرية نفـاذة ويقطر من لحاء نبات النخيل «التلتال» وهو الغلاف الذى يحمى لقاح النخيل الذكر ويتميز هذا اللحاء بلونه الأخضر الداكن من الخارج وملمسه الخشن، بينما يكون لونه من الداخل يميل إلى الصفار وملمسه ناعم جدا، وتعتبـر صناعة تقطير ماء اللقاح من الصناعات القائمة على منتجات النخيل دون دخول أى مادة أخرى فى هذه الصناعة الشعبية، ويستخدم ماء اللقاح عادة بإضافته إلى مياه الشرب والشاى أو يصنع منه أنواع من المشـروبات المختلفة خصوصا فى فصل الصيف". ومن فوائده أيضا أنه يضاف للشاى ليضيف نكهة مميزة، وهو دواء ناجع فى علاج الاضطرابـات المعوية وآلام البطن والغـازات، ويقول عنه الطب القديم بأن مزايا لقاح النخل أنه يقوى المعدة ويجففها، ويسـكن ثائرة الدم، وينفع المحرورين، ويقوى الأحشاء.

وينفع من ضيق النفس، والسعال البلغمى.. وأخذ ملعقة صغيرة من غبار لقاح النخل صباحا على الريق مع قليل من العسـل تفيد فى تهدئة الأعصاب المتوترة. ويسـتخرج مـن اللقاح ماء اللقاح والذى يسـتعمل لتعقيـم الماء ومعطيا طعما طيبا له. وحبوب اللقاح أو لقاح النخل، وهو أول مـا يبـدو من طلع النخل الذكـر والذى تلقح بـه النخلة. وحبوب لقاح النخل عبارة عن مسـحوق ناعم جدا شـديد البياض يتطاير سريعا إذا ما تعرض لنسـمة هواء. ومن فوائـده التى ذكرها الطب القديم، أنه يقوى المعدة ويجففها، ويسكن ثائرة الدم، وينفع المحرورين، ويقوى

الأحشـاء وينفع من ضيق النفس، والسـعال البلغمى. وذكر ابن البيطار "دقيق طلع النخل ينفع من الباه ويزيد فى المباضعة".

وقال الرازى: "الطلع والجمار ينفعان المحرورين ويسـكنان ثائرة الـدم، ويدفع ما تولده هذه فى المعـدة من النفع. ويقول داود الأنطاكى "ينفـع إذا صفى وخلا عـن المرارة مـن التهاب العطـش والحميات، والإسهال والنزيف ونفث الدم". وهناك أبحاث طبية أجريت على لقاح النخل أفـادت بأنه فى مقدمة المقويات للجسـم لكثرة المواد الدهنية فيـه بالإضافة إلى احتوائه هورمون الإيسـترون الذى ينشـط المبيض وينظم دورة الطمث، ويسـاعد على تكوين البويضة. ومنه تم استخلاص مادة الروتين التى يتكون منها عقار يقوى الشـعيرات الدموية فى جسم الإنسـان ويحفظها من الإنفجـار، وبذلك يمنع النـزف الداخلى الذى يصيب المصابين بضغط الدم المرتفع والسكرى.

* * *

إدكو ورشيد
صناعات النخيل والبوص

إطلالة على تاريخ مدينتى إدكو ورشيد

على امتداد ١٥ كيلو متر على الأبيض المتوسط يقع مركز إدكو التابع لمحافظة البحيرة التى أخذت اسمها من اسم البحيرة التى تنسب إلى إدكو (بحيرة إدكو) والتى يبلغ مسطحها ٢٠ ألف فدان، تستمد ماءها من مياه البحر عن طريق بوغاز المعدية ومياه النيل التى تصل إليها عن طريق المصارف التى تصب فيها، مما أدى إلى تنوع أسماكها ما بين أسماك المياه العذبة وأسماك المياه المالحة. أيضا كما تنوعت الأسماك فى البحيرة، تنوعت الطيور المهاجرة إليها من أوربا. فيصاد منها طيور الغر والبلبول والشرشير والخضارى والوراق والشهرمان وغيرها. تبعد إدكو عن الإسكندرية ٤٥ كم غربا وعن رشيد ٢٠ كم شرقا. أطلق عليها الفراعنة اسم "جوكات" وهى كلمة من مقطعين معناها التل المرتفع، لوجود المدينة القديمة فوق هضبة ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو عشرة أمتار، ويُرجح أنها منطقة (كوم الطواحين).. ومما ذكره أديب إدكو محمد محمود زيتون فى كتابه (إدكو.. ماضيها.حاضرها. مستقبلها) عن سبب تسميتها قوله: والحقيقة إن (إدكو) محرفة من (إتكو) وهى مشتقة من الكلمة القبطية القديمة (تكوبى Tkwop) وهذه مشتقة أيضا من الكلمة المصرية القديمة (جوكات) ومعناها (التل المرتفع)..

ذكرهـا المقريزى فى خططه باسـم (مدينة النجـوم) بقوله: وفى الوجه البحرى مدينة النجوم وقد غلب عليها الرمال والسباخ، ويعرف منها اليوم "قرية إدكو" على سـاحل البحر بين الإسـكندرية ورشيد. وذكرهـا الجبرتى فى كتـاب "عجائب الآثار فى التراجـم والأخبار" وأوضح سبب تسميتها مدينة النجوم، لصفاء جوها وندرة السحب التى تحجب النجوم. ويذكر شـامبليون أن اسـمها الفرعونى "تاج" المدينة التى شـيد بها معبـد الإله حتحور. أما (اسـترابون) فيذكرها باسـم "إجنو" التى تحولت فى العصر الرومانى إلى "تكوبى". وذكرها أمليـنو باسم "إتكو" المسجل بكشـف الأسقفيات لمقاطعة "تباشور" التى تضم رشيد والإسكندرية وشرق الإسكندرية. ويضعها سليم حسن باسم إدكو أو تاجو على الساحل الشمالى لبحيرة إدكو فى المقاطعة السابعة غرب، التى سـماها اليونانيون (ميتيليت) وهى أى "إدكو" من البلاد المصرية القديمة التى ظهـرت بلفظها فى العربية مع التحريف ومعناها القديم (التل المرتفع).. وحتى القرن السادى الميلادى ظل هذا اسمها (إتكو) ثم تحولت التاء إلى دال بعد الفتح العربى لسهولة النطق، لتتحول إلى (إدكو) وهو ما ذكره الزبيدى فى قاموسه.

وفى عصر البطالمة شـهد ساحل إدكو جانبا من الصراع بين قياصرة رومـا أوكتافيوس وأنطونيو، فى معركة أكتيـوم البحرية (٣١ ق. م.) وانتهت المعركة شـرق الإسـكندرية حيث لاذ أنطونيو بشـاطئ إدكو وأبـى قير مسـتنجدا بكيلوباترا، ولكن أكتافيـوس انتصر وبدأ الحكم البطلمـى لمصـر. وفى عـام (١٩٦١م) وقع اختيار المخـرج الأمريكى

(جون مانكوفتش) على ساحل إدكو لتصوير المعركة البرية لفيلم "كليوباترا" الذى قام ببطولته إليزابيث تايلور وريتشارد بيرتون، وشارك العديد من أبناء المدينة فى مشاهد الفيلم فى أدوار معاونة (كومبارس).

وعندما دخل الإسلام مصر سنة ٢١ هجرية (٦٤٧م) فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذى أرسل عمرو بن العاص لفتح مصر. لم تكن إدكو فى هذا التاريخ سوى قرية صغيرة يقطن سكانها (١٠٠٠) نسمة فوق تل كوم الطواحين والحنبلى. وحاصر جيش المسلمين بقيادة الصحابى شافع بن السائب "إدكو" فقام حاكم القرية الرومانى "طالما" بغلق الأبواب ومنع الدخول أو الخروج، واستمر الحصار ثلاثة أيام نفد فيهم الماء من القرية، وكاد يهلك الجميع لأن القرية (إدكو) تعتمد على مياه الشرب من الآبار الرومانية الموجودة خارج القرية فى بساتين النخيل. وهرب "طالما" عبر نفق تحت الأرض يصل إلى منطقة المعصرة غربا، ودخل المسلمون إدكو، فاشتبك معهم أهلها، وانتهى الاشتباك بنصر الفاتحين ثم اعتنق أهلها الإسلام.

وفى الثانى من يوليو ١٧٩٨م نزل جنود نابليون ليحتلوا الإسكندرية، فتلقى كاشف البحيرة رسائل من أهل الإسكندرية يطلب النجدة فجمع عربان البحيرة وزحفوا بالخيول دفاعا عن الإسكندرية فلما رأى أهل الإسكندرية بسالة أهل البحيرة قويت عزيمتهم وكبدوا الفرنسيين الكثير من الضحايا وأصيب كليبر ومينو بجروح، وبرغم ذلك تم احتلال الإسكندرية. وأمر الجنرال (مينو) بإطلاق النار على مشايخ

إدكـو وإدفينـا بتهمة تحريضهـم الأهالى على مقاومـة جنود الحملة الفرنسية. ثم بدأ جنود نابليون فى تنفيذ خطة الاحتلال فسارت قوات الفرنسـيين من الإسكندرية وعبر أبى قير وبوغاز إدكو حتى وصلوا إلى رشيد واحتلوها ثم أصدر نابليون أمره بأن يكون مينو حاكما عليها.

مما جاء فى وصفها

يقـول علـى مبـارك فـى "الخطـط التوفيقيـة" عـام ١٨٤٥م: إدكو قريـة كبيرة فى الوجـه البحرى، من أعمـال مديرية البحيـرة، بينها وبين رشـيد سـاعتين، وبينها وبين الإسـكندرية ست سـاعات (وسيلة المواصـلات وقتهـا كانـت الحيوانات من جمـال وغيرها) بهـا جوامع كثيـرة، وطواحين هـواء ومعمل فسـيخ ودكاكين وأنوال تنسـج الحرير الإسـكندرانى، والملس والملايات من القطن والكتان، وبها أشـجار كروم ونحـو سـبعين ألف نخلة، ويـزرع بها البطيـخ وأنواع القثـاء، وأهلها يصيدون السـمك من بحيرتها، ويشـربون من حفائر فـى الأرض لبعدها عـن النيل (يقصد الآبـار الجوفية وكانت توجد شـرق المدينة وغربها). ومنهـم مراكبية، وقد اسـتولت الرمـال على أرضها، ومـن عوائد أهلها ألا تخرج النسـاء إلا ليلا متحجبات، ومن مظاهر نشـاط رجالها ألا يعود أحدهـم لمنزله إلا ومعه شـىء، وإلا وضـع حجرا أو ترابـا فى مقطفه، إنفـة مـن أن يرى فـى حالة كسـل أو بطالـة، وإدكو منشـأ جماعة من العلمـاء عرفنـا بعضهم ولا نزال نجهـل الآخرين، مع كثرة مسـاجدهم وقبابهـم بهـا وعلى ذكر آبـار الميـاه، ذكـر "محمد محمـود زيتون"

أنه بعد الرجوع إلى خرائط مصلحة المساحة لإدكو عام ١٩٣١م استطاع التحقق من وجود أكثر من ثلاثين بئرا منها: بئر قاسم، بئر الحلو، بئر صديق، بئر زيتون، بئر قطيط، بئر العبد، بئر القوالب، بئر شلبى، بئر السنجق، بئر البركة، بئر عيدة، بئر أم عبد الله، بئر الشيخ، بئر طاجن، بئر الأمير جبير، بئر الشريف، بئر العرضى، بئر سيدى عبد الرازق، بئر الجميزة، بئر خميرة وغيرها.. وهذه الآبار منها ما هو مستدير قطره يزيد على ثلاثة أمتار، وأحيانا لا يتجاوز المتر الواحد، ومنها ما هو مربع ضلعه من متر إلى مترين، وهذه الآبار من حجارة صلدة كالصوان..ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآبار لم يتبق منها سوى الأسماء فقط، حيث يتم تعريف الأماكن بها، أما الآبار نفسها فقد اختفت تماما تحت الرمال بفعل الرياح، أو عمدا بعد أن وصلت المياه إلى المدينة ولم تعد هناك حاجة لاستخدام ماء الآبار فى الشرب أو الرى كما فى السابق.

وفى كتاب(الإسكندرية تاريخ ودليل) يقول إ.م.فورستر:

"وتقع قرية إدكو على هضبة مرتفعة بين البحيرة والبحر المتوسط (ولا تحتوى فندقا أو مقهى) والبيوت فى شوارعها المنحدرة مبنية من الطوب الأحمر، وتدعمها جذوع النخيل، وأنواع من الأخشاب، وهى تسبق معمار رشيد الأكثر تعقيدا، وتوجد بعض الأبواب المنقوشة على الطراز الإيطالى. والمساجد بها ليست ذات أهمية. وعلى قمة المرتفع توجد بعض طواحين الهواء ذات الثمانية أشرعة، وهى تطحن الحبوب. وتنمو أشجار نخيل طيبة الثمار على الكثبان الرملية القريبة من الشاطئ، بسبب وجود مياه عذبة تحت سطح الأرض مباشرة... وتوجد صناعة محلية مهمة

للنسيج وخاصة الحرير الذى تستورد خاماته من الصين. وورش هذه الصناعة توجد غالبا فى الأدوار العليا من المنازل، ويتم الصعود إليها بواسطة درج خارجى. وتوجد أماكن هادئة بديعة، وعلى جدران بعض المنازل توجد نقوش كوفية من الحجر. ويجلس النساجون إلى أنوالهم فى تجاويف بيضاوية صغيرة، وهؤلاء النساجون أيديهم بارعة، وهم ينتجون بمعداتهم الخشبية البسيطة أقمشة متينة وجميلة فى الوقت نفسه. ويتم صيد السمك فى بحيرة إدكو، وبعض الصيادين يخوضون فى الماء العميق لمسافات طويلة. ويوجد أيضا أسطول من القوارب يرسو على المرساة الخشبية الطويلة الموجودة بالقرب من المحطة، وأحيانا توجد بعض طيور البشروش. ويستمر خط السكة الحديد بين البحيرة والبحر، ثم يتجه فى النهاية شمالا وينعطف عند بساتين النخيل الضخمة، والتى تقع خلفها مدينة رشيد ونهر النيل". (٥٠)

وفى كتاب (على ضفاف بحيرات مصر) وصفها اللواء عبد المنصف محمود بقوله: وادكو هى الامتداد الطبيعى للإسكندرية، كما كانت معبرا لمدينة كانوب، وإليها نزح الناس من الإسكندرية عندما دهمتهم غارات الحرب العالمية الثانية فلاذوا بأكناف إدكو... وكثير من جهات إدكو يطلق عليها أسماء غريبة مثل منطقة المعصرة ولا يوجد شىء يعصر الآن بعد أن ضاقت بخمورها امرأة المقوقس. (٥١)

وقد أطلق بعض المؤرخين على بحيرة إدكو "بحيرة الإسكندرية" وهذا ما أوضحه "محمد محمود زيتون" فى كتابه (إقليم البحيرة) وقد ذكر ابن عبد الحكم فى "فتوح مصر" والمقريزى فى "الخطط المقريزية"

أن البحيرة كانت تزرع كلها كروما وأن امرأة المقوقس حاكم مصر كانت تأخذ منها الخمر، وعندما كثر عندها الخمر طلبت المال، فقالوا: ليس عندنا مال، فأرسلت عليهم الماء فأغرقتها وصارت بحيرة.

أما آثار إدكو فيُذكر أن هناك منطقة تعرف إلى اليوم بالمعصرة، والتى كانت تنتشر بها معاصر الكروم فى العصر الرومانى، وتوجد منطقة مياح التى قال بشأنها ابن الحكم: إن ماح وياح، كانا ملكين من القدماء وكلاهما ابن للملك "بيصر"، كما توجد فى شمالها الشرقى منطقة "الدار الحمراء" على ساحل البحر المتوسط، وقد ظلت آثارها باقية إلى عهد قريب، واستخرج منها الأهلون كثيرا من الأدوات عليها نقوش مختلفة ترجع إلى عهد البطالمة، كما كانت حولها مقابر مبنية بالآجر، ووجدت أيضا قناة من الآجر تمر بهذه الدار الحمراء وتتجه جنوبا، ويرجح أنها كانت متصلة بجزيرة القصور فى البحيرة مما يدل على أنها كانت تنقل الماء إلى الدار الحمراء وإلى القصور المذكورة وما بينهما من الدور والمبانى قبل أن تنشأ البحيرة التى كان موضعها بساتين كروم لامرأة المقوقس، وكانت تأخذ بخراجها من الفلاحين خمرا، فأغضبوها فأرسلت إلى عامل تلك المنطقة أن يطلق عليهم ماء البحر المالح، فأطلق عليهم البحر من ناحية أبو قير فغرقت تلك الأراضى كلها وجار الماء عليها فصارت بحيرة يصاد منها السمك، وكان يدخل إليها الماء من قبلى أبو قير، وكانت الأراضى عامرة بالبساتين النضرة وإلى الآن تشاهد آثار المدن القديمة التى كانت هناك وهى التلال التى بداخل بحيرة إدكو وخارجها...

وفــى إدكو تم العثور على بعض الأحجار ذات النقوش المســمارية، كذلك تم العثور على حجر جرانيتى بمنطقة "كوم الطواحين" تم تسليمه إلى منطقة آثار رشــيد . ومنطقة كوم الطواحين من المناطق التى تنتشــر فيها عملية التنقيب عن الآثار بصورة سرية بعد أن تم العثور على الآثار بها خاصة فى المنطقة المحيطة بمسجد الجبرتى وأسفله. وتحت مئذنة مسجد الحمصانى تم العثور على جزء من تمثال من الجرانيت على قاعدة من الحجر نفســه، يمثل شخصا جالســا القرفصاء يحتضن ناووسا وعلى ظهــر التمثال بقايا نقــوش هيروغليفية تقول: "روحه لن ترفض ســيد الجنــود وقائدهم حورس الصادق فى كلمتــه..". وفى داخل بحيرة إدكو نفســها تم العثور على بقايا المعاصر التى تحدث عن وجودها المؤرخون قبل أن تغمر مياه البحر المنطقة. وهذا نفســه ما ذكره على باشــا مبارك بقوله: "وإلى الآن تشــاهد آثار المدن القديمــة التى بداخل بحيرة إتكو (إدكو) وخارجها" كذلك يوجد فى المتحف الرومانى بالإسكندرية حجر عليه نقوش يونانية تم العثور عليه فى إدكو عام ١٩٦٣م. ومن آثار إدكو اليوم، لم يتبق ســوى طاحونة واحدة، حيث كانت توجد بشــمال إدكو قديما طواحين هوائية، آلاتها خشــبية، تم بناؤها على النظام الهولندى على التل المســمى "كوم الطواحين" نســبة لعدد الطواحين السبعة التى كانت عليها، ثم صُنعت الطواحين من الحديد وأديرت بقوة الرياح لطحن الغــلال، ولم يتبق من هذه الطواحين إلا طاحونة واحدة ترجع إلى عصر محمــد على، وتعتبر هذه الطاحونة من النماذج الفريدة الباقية لطواحين الهــواء فى منطقة غرب الدلتا. ولا يوجد بهــا اليوم آثار تذكر تعود إلى

فترة المسيحية، حيث كانت إدكو تتبع أسقفية واحدة مع الإسكندرية ورشيد وهى أسقفية (تباشور) كما ذكر (أمليتو)، ومن الأساقفة الذين نالوا الشهادة القديس مقاريوس أسقف إدكو، والراهب الزاهد الذى عاش فى القرن الخامس الميلادى، وأحد الثلاثة مقارات القديسين (القديس مقاريوس السكندرى، القديس مكاريوس الأسقف "أسقف إدكو"، القديس الأنبا مقار الكبير) تم نفيه مع البابا ديسقورس إلى جزيرة غاغرا بعد حضوره مجمع خلقيدونية، الذى ظهر فيه الاختلاف جليا بين الأساقفة حول طبيعة السيد المسيح. وعندما عاد إلى الإسكندرية ظل ثابتا على مبادئ كنيسته رافضا التوقيع على قرارات المجمع التى تخالف تعاليم الكنيسة القبطية، إلى أن تم قتله.

الحرف الرئيسية لسكان إدكو، الزراعة، وصيد الأسماك. ويعتبر صيد أم الخلول، مما تشتهر به إدكو، وتختص به عن غيرها لذلك يطلق عليها محبوها (أم الخلول الادكاوى). وأم الخلول حيوان صدفى صغير يتكون من صدفتين، بينهما لسان لحمى صغير وهو ما يؤكل، وتوجد أم الخلول تحت رمال البحر يتم استخراجها بجرف الرمال ونخلها بمعدة خاصة لذلك. ومؤخرا تم اكتشاف حقول غاز ضخمة بها. وقد دخلت مصر إلى قائمة الدول المصدرة للغاز نتيجة هذه الاكتشافات الضخمة. ويجرى حاليا تصدير الغاز الطبيعى المسال من إدكو إلى العديد من الدول.

أما (رشيد) وهى ثانى أكبر مدينة، بعد القاهرة، تضم آثارا إسلامية ومنازل تراثية. وهى بمثابة متحف مفتوح، ويطلق عليها

أهلهـا مدينة المليـون نخلة. وهى مدينة قديمة يرجـع تاريخها إلى ما قبل الأسـرة الأولى فـى التاريخ الفرعونـى، لأن الملك مينا كان قد زحف إليها فى ثورته الأولى سـعيا وراء تحقيق الوحدة بين الوجهين القبلـى والبحـرى فاصطدم بأهـل هذه المدينـة الذين كانوا يسـمون "رخيتو" أو "رخيت" أى عامة الناس. وفى الأسـرة التاسـعة عشـرة، أقام الملك "منفتاح" استحكاماته على الضفة الغربية لفرع النيل برشيد لصد هجمـات الإغريق والصقليين وقد انتصـر المصريون لأول مرة فى معركة حربية مع أوربا وقد جرت وقائعها فى رشـيد، كما أقام الملك "بسـماتيك الأول" عام ٣٦٦ ق.م. معسـكرا على سـاحل رشيد وأوقف ثلاثين سفينة لحمايتها.

دخلـت رشـيد فى الإسـلام على يـد عمرو بـن العـاص بعد فتح الإسـكندرية عام ٢٠ هـ، وكان حاكم رشـيد القبطى "قزماس" قد عقد صلحـا مع ابن العـاص وأدى الجزية وظلت الكنائـس على حالها لمن بقـى على دينه مـن أهلها. وفى القـرن الثالث الهجرى كانت رشـيد مدينـة عامرة آهلة بها ميناء بحرى يجرى فيه النيل إلى البحر المالح وتدخله المراكـب حتى تصير فى النيل، أما فى القرن الرابع الهجرى فقد تعرضت رشيد لمعارك حربية جرت بين العباسيين والمغاربة عام ٣٠٦هـ انتصر خلالها العباسيون.

وقـد بلغت رشـيد أوج حضارتها فى القرن العاشـر الهجرى، فقد حظيت هذه المدينة بعد أن أصبحت أقرب الثغور المصرية من إسطنبول بعد الفتح العثمانى لمصر عام ٩٢٤هـ – ١٥٧١م بمزيد من الاهتمام حيث

حفلت بالمنشـآت العثمانية وكان يوجد بها مؤسسات أوربية وقناصل يمثلونها، إلا أن القرن الثانى عشـر قد شهد انحدار المدينة شأنها فى ذلك شأن المدن المصرية على أيدى المماليك المتناحرين.

وعندما وصلت الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية فى ١٦ مارس ١٧٠٨م، اتجهت أنظار قائد الحملة فريزر إلى رشيد فى ٢٠ مارس لتأمين التموين القـادم منها، وفى ٢٩ مارس تقدمت قوة إنجليزية قوامها ١٤٠٠ جندى للاستيلاء على رشيد إلا أن الحملة منيت بهزيمة نكراء حيث قاد الدفاع عن المدينة حاكمها على بك السـلانكى والشيخ حسن كريت وقد اشترك سكان المدينة رجالا ونساء وغلمانا فى الدفاع عنها.

يقول الجبرتى: فى يوم الجمعة الرابع عشر من محرم سنة ١٢٢٢هـ وردت أخبـار من ثغر رشـيد يذكرون بأن طائفة مـن الإنجليز وصلت إلى رشـيد، ودخلوا إلى البلد، وكان أهل البلد ومن معهم من العسـاكر منتبهين ومسـتعدين بالأزقـة والعطف وطبقات البيـوت، فلما وصلوا بداخـل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم من سـلاح وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كبيرة وأسروا الباقين، وفرت طائفة إلى ناحية أبى قير فقاتلها كاشفها، فقتل بعضهم وأخذهم أسرى...

والثابت تاريخيا أن هزيمة الإنجليز فى رشـيد قد أجلت الاحتلال الإنجليـزى لمصر نحو ٧٥ عاما إلـى أن عادوا مرة أخرى إلى مصر عام ١٨٨٢م.

ومـع مطلع الثانى من شـهر يوليو ١٧٩٨م جـاء نابليون بونابرت بقواته إلى الإسـكندرية تمهيدا لاحتلال مصر وبعد مقاومة باسلة فى

الإسكندرية تم استقرار الحال لبونابرت فبادر بالتوغل فى البلاد لإتمام فتحها فأرسل قوة إلى رشيد لأهميتها غير أن رشيد لم تكن فريسة سهلة فى أيدى الفرنسيين بسبب المقاومة الشعبية الباسلة. وفى ٢ مارس ١٧٩٩م تمت المصاهرة الفرنسية المصرية بعقد قران الجنرال جاك مينو القائد الثالث للحملة الفرنسية والذى أشهر إسلامه وأطلق على نفسه اسم "عبد الله" على غادة رشيد "زبيدة" بنت محمد البواب وكان من كبار تجار رشيد.

آثار مدينة رشيد

ما إن يتردد اسم "رشيد" حتى يتبادر إلى الذهن حجر رشيد (Rosetta stone) الذى اكتشفه ضابط فرنسى ويسمى "بوشار" فى ١٩ يوليو عام ١٧٩٩م إبان الحملة الفرنسية، وكان مفتاح حل لغز الكتابة الهروغليفية والتى استطاع فكها العالم الفرنسى جان فرانسوا شامبليون عام ١٨٢٢م. وحجر رشيد الذى تم العثور عليه عام ١٧٩٩م هو عبارة عن حجر من البازلت الأسود يحمل نسخة من مرسوم أصدره بطليموس الخامس عام ١٩٦ق.م. مدون بخطوط ثلاثة هى اللغة المصرية القديمة، والديموطيقية (هى اللغة المصرية الشعبية) واليونانية. وقد آل الحجر طبقا لشروط معاهدة ١٨٠١م بين الفرنسيين والإنجليز إلى الإنجليز وهو الآن من الآثار المعروضة بالمتحف البريطانى بلندن.

وفى رشيد أيضا العديد من البيوت الأثرية والتى تعكس ما تميز به أهل رشيد من تقدم فى فن النجارة والعمارة والبناء. وتضم رشيد ٢٢ بيتا

أثريا منها منزل الأمصيلى، وزبيدة البواب فضلا عن ١٢ مسجدا ترجع إلى أصول تاريخية إسلامية مختلفة وأربعة آثار أخرى هى طاحونة أبو جاهين وحمام عزوز وبوابة أبو الريس و قلعة قايتباى، وتعكس هذه الآثار الطابع الإسلامى والمتأمل لها يقف كثيرا أمام المشربيات وصالات الاستقبال والنقوش الخزفية وأشغال الصدف فضلا عن السراديب وهى غاية فى التعقيد والسرية، كما كانت هذه البيوت مزودة بصهاريج المياه العذبة . كذلك تتميز المساجد الأثرية بمعمارها الفريد ومنها مسجد جامع دومقسيس. الذى أنشأه صالح أغا دومقسيس فى سنة ١٧٠٤م ويقع فى وسط مدينة رشيد وهو من المساجد المعلقة أى المشيدة بإرتفاع عن منسوب الطريق ويصعد إليه ببضع درجات، وأهم ما يتميز به هذا المسجد محرابه المكسو بترابيع من القيشانى المزخرف الجميل، و جدار القبلة المكونة من ترابيع من الرخام الأبيض عليها كتابات مختلفة الخطوط، وترابيع أخرى من القيشانى المزخرف. وإلى جوار المحراب منبر خشبى دقيق الصنع، وتقع المنارة فى منتصف الواجهة البحرية، وهى مثمنة حتى دورة المؤذن، تحليها زخارف وتقاسيم جصية تتخللها ترابيع من القيشانى الملون. وتتكون دورة المؤذن هذه من مقرنصات متعددة الحطات، ويبرز منها عمود إسطوانى محلى سطحه بقنوات رأسية وينتهى من أعلى بالخوذة، وهذا الطراز من المنارات هو الشائع فى كل من رشيد ودمياط وفى مدن الوجه البحرى.

وجاء الكثير عن رشيد فى موسوعة وصف مصر التى وضعها علماء الحملة الفرنسية، ومما ذكرته عن مسجد أبى منصور (مندور):

"وأبو منضور هو اسم هذا الولى، وهذا الاسم يعنى بالعربية: أبا الروعة وأبا الجمال.أما المكان نفسه فهو بمثابة مزار يتوقف عنده البحارة والمسافرون ليقدموا نذورهم إلى شيخ الجامع حتى يحوزوا بركة ورضاء الولى... وينهض حصن أبى منضور على أحد المرتفعات الممتدة إلى الجنوب...".

ومما ذكره (إ م فوريستر) عن رشيد، وعن شوارعها ومساجدها وطرازها المعمارى:

"رشيد والإسكندرية مدينتان متنافستان، عندما تنهض واحدة تأخذ الأخرى فى الاضمحلال... كانت رشيد ذات أهمية كبيرة أثناء الحملات الصليبية، وعرفها القديس لويس الفرنسى (عام ١٠٤٩م) ب "ركسى" وتمت إعادة بنائها فعليا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وصارت على هيئتها الحالية، المساجد والدور والأحواض ومستودعات الحبوب التى تغطى ضفة النهر... وقد ابتدعت أسلوبا معماريا متلائما مع المكان، وكانت الخامة الرئيسية فيه هى الطوب المصنوع من طمى النيل ذو اللونين الأحمر والأسود، ولم توجد أى حجارة جيرية فى متناول الأيدى كتلك التى كانت فى الإسكندرية، وكانت أخشاب النخيل والأعمدة الأثرية تستخدم مع هذا الطوب فى أعمال البناء. وهناك بعض الأعمال المعمارية المحدودة تم فيها استخدام المشربيات والخزف المزخرف، وهى ذات طراز رفيع ولكنه ليس راقيا، ويمكن مقارنته بالطراز القرميدى فى مدن شمال ألمانيا نفسها". (٥٢)

ويقول أيضا : "... وطالما كانت الإسكندرية نائمة، فإن رشيد تزدهر. وفى بدايات القرن التاسع عشر، وصل تعداد سكانها إلى ٣٥ ألف نسمة، بينما وصل تعداد سكان الإسكندرية ٥ آلاف نسمة. واحتلت قوات نابليون رشيد عام ١٧٩٨م واستردها الأتراك والإنجليز عام ١٨٠١م وبعد ذلك صدت حملة الجنرال فريزر الاستكشافية عام ١٨٠٧م.. وكانت هذه الأحداث مقدمة لنكبة مريرة لهذه المدينة، وهى نهضة الإسكندرية على أسس علمية على يد محمد على، وبمجرد أن عمل على تطوير المبانى، وإعادة وصلها بالنظم المائية للنيل عن طريق شق ترعة المحمودية، أخذت رشيد فى الاضمحلال وأصبحت ذابلة وواهنة؛ وذلك لعدم اتصالها بالعالم الخارجى. بدأت المستودعات والمساجد فى الإنهيار، وخربت المنازل الفخمة الخاصة بالتجار من الداخل، وأخذت الرمال تتقدم من الجنوب والغرب، وتغزو كل عام جزءا صغيرا جديدا من بساتين النخيل والشوارع...". (٥٣)

وذكر أيضا "فورستر" المبانى القديمة والأثرية منها وحالها المتردى مثل مسجد (على المحلي) الذى أقيم عام ١٧٢١م، ويصف المنازل القريبة من النهر: وهذا الجزء بأكمله من المدينة فى غاية الروعة، فالمنازل مكونة من أربعة أو خمسة طوابق، وبها أعمدة من طراز عتيق قائمة بين القرميد بشكل رائع، وأفضل نموذج لهذا الطراز المعمارى المحلى تجده فى منزل "على الفطايرى" فى حارة "الغزل" وعليه نقوش على العتبات العليا للأبواب والنوافذ وترجع إلى عام ١٦٢٠م. والدرج الخارجى يؤدى إلى بابين، أحدهما يؤدى إلى ديوان

الرجال والآخر إلى غرف الحريم.. وتوجد منازل جميلة أخرى، وهى منزل الشيخ "حسن الخباز" فى شارع دهليز الملك "ومنزل عثمان أغا" فى أحد الشوارع المتقاطعة، وستجد به أخشابا منقوشة ترجع إلى عام ١٨٠٨م وستجد أيضا منزل "أحمد أغا" فى شارع الغباشى فى غرب المدينة الذى تغطيه الرمال. وفى نهاية الشارع الرئيسى يوجد أهم مبنى فى المدينة وهو "مسجد زغلول"، وهو يتكون فى واقع الأمر من مسجدين: أنشئ المسجد الغربى حوالى عام ١٦٠٠م على يد زغلول وهو مملوك وخادم لسعيد حسن، أما المسجد الآخر وهو الأكثر خرابا، فهو مسجد الضيوى، وتوجد به ساحة فى وسطها فسقية.. وهو مبنى بالقرميد، فيما عدا المئذنتين فهما من الأحجار.. وصحن مسجد زغلول عبارة عن بهو فسيح وبه أكثر من ثلاثمائة عمود، معظمها أثرية، ومرتبة فى ستة صفوف متوازية، وتوجد أربعة محاريب للصلاة، ثلاثة منها مزخرفة بإتقان، وبه مقبرة المملوك نفسه،... وصحن المسجد صار خربا، وهو مبنى بإهمال. وشرقى مسجد زغلول بالقرب من النهر يوجد مسجد محمد العباس الذى يرجع إلى عام ١٨٠٩م وهو مؤسس بحجم أكبر، ولكن على الطراز نفسه، وبه – على خلاف مساجد رشيد – قبة جميلة تغطى قبر الولى. ومن المساجد الأخرى: مسجد توماكسيس، الذى بناه صالح أغا توماكسيس ويتم الصعود إليه عن طريق سلم، وتوجد به أعمال دقيقة من الحديد حول ثقوب المفاتيح، وبه منبر جيد من القرميد أيضا، ومحراب الصلاة لا يزال محتفظا بزخارفه الهندسية الأصلية ذات الأشكال السداسية..

ويوجد أيضا مسجد الشيخ "تقى" والذى يقع على زاوية من شارع "سوق السمك القديم" ومدخله مبنى على شكل الدلتا، وبه ورود على أقواسه وبداخله منبر يرجع إلى عام ١٧٢٧م. ويوجد على بعد ميل من جنوب المدينة (مسجد أبو مندور)، وأفضل وسيلة للوصول إليه هى القوارب. هذا المسجد عبارة عن مبنى حديث رائع ويقع فى موقع جيد على ضفة النهر عند انعطافه، وتوجد خلفه تلال هائلة من الرمال تهدد بدفنه... وفى شمال المدينة، فى منتصف الطريق بينها وبين البحر هناك موقع قلعة القديس جوليان والتى بناها جنود نابليون، حيث اكتشفوا حجر رشيد. وقد اختفت القلعة، ولكن يوجد مخطط لها فى متحف الإسكندرية.. (٥٤)

وفى وصف مظاهر الطبيعة والأنشطة التى ميزت المدينتين إدكو ورشيد، ذكر عالم الحملة الفرنسية "جولوا" الرحلة إلى رشيد مارا بإدكو وقادما من الإسكندرية: هناك الصحراء الليبية فى جانب، وفى الجانب الآخر هناك شواطئ النيل البهيجة، وهكذا يمكن القول بأن الحياة والموت يتجاوران. وإلى الغرب نلمح تلك الصحراء التى تفصل رشيد عن الإسكندرية، لكن المشهد يضيع وسط الرمال المتحركة التى لم تبق مطلقا على أثر لخطوات الرحالة. ولقد كان من الممكن ألا نلحظ الآثار الواقعة على طريق الإسكندرية رشيد لو لم تكن تشير وتلفت الأنظار تلك الأعمدة التى من الطوب النيء والتى تنهض تباعا بطول الطريق. وتزحف الرمال المتحركة حثيثا نحو مدينة رشيد حتى ليبدو وكأنها تريد أن تغزوها كلية، فهى تتراكم حول أشجار النخيل وحول أقل العوائق التى

هناك لتكون كثبانا يتزايد عددها يوما بعد يوم، ولسوف تغطى بعد قليل الرقعة المنزرعة من الأرض، وحينئذ ستكون هذه الرمال – كما سبق أن عبر المصريون القدماء بدقة – هى طيفون الرهيب الذى يهدد بغزو مملكة أوزوريس، أى أرض مصر الخصيبة.. (٥٥)

وكانت الزراعة من الأنشطة التى لفتت الانتباه لدى علماء الحملة الفرنسية، وخاصة زراعات النخيل والأرز وهم فى طريقهم إلى رشيد... وعندما ينتقل المرء بنظراته نحو الشرق، يرى تحت بصره نيل مصر العظيم، تسبح فوقه قوارب ذات شكل جذاب. ويرى كذلك ريف الدلتا البهيج حيث تمتد حقول الأرز وصفوف أشجار النخيل والجميز ذات الخضرة اليانعة، رائعة الجمال. وكل شىء فى هذا الجانب ينم عن حيوية دافقة، وكل شىء فيه يمتلىء بالحياة، فهناك ترى قطعان الجاموس، ترى الكلأ أو تغمس جسدها فى النهر، وترى الفلاح منهمكا فى أعمال الحقل دون أن يسمح لنفسه بإلتقاط أنفاسه. فتراه وهو يدير ماكينة الرى كى يسقى حقوله فينمو محصول الأرز وينضج فيحصل بذلك على مقابل ما بذله من جهد بالإضافة إلى ما يبتغى من ربح... (٥٦)

ووصف أيضا طريقة الرى بعدة طرق منها الشادوف والساقية، و(المنطال) والتى يقول عنها: "أما طريقة الرى بالمنطال فهى تتم عن طريق فلاحين نصف جالسين على كومة من الطين المرتفع على شاطئ النهر، ويمسك كل منهما بكل يد من يديه حبلا تتدلى منه قفة أو نوع من الجردل المصنوع من سعف النخيل، ويقذفان بهذه الجرادل

فى النهر حيث تمتلئ وعن طريــق الحركة التى يحدثانها بارتدادهما إلى الخلف ينتزعان الجرادل من النهر ويفرغانها فى خزان صغير فى مستوى جداول الرى... (٥٧)

كذلك وصف عالم الحملة الفرنســية "جولوا" مضارب الأرز وكيف كانوا يســتخدمون الخيل والأبقار والجمــال فى تحريك روافع مضارب الأرز، ووصف النورج وعملية اســتخدامه فــى درس القمح، ثم عملية طحن القمح...

"وتوجد فى رشــيد كثير مــن طواحين القمح، ويضــم كل بيت فى العادة واحــدة منها، وليس ثمــة اختلافات بين هــذه الطواحين فيما عــدا أن طواحين الأغنياء تدار بواســطة الحيوانات بينما تدار طواحين الفقراء بواسطة ســواعد الرجال، وتتم الحركة فى طاحونة الميسورين بأيســر الســبل.. وهذه الطاحونة عبارة عن عجلة موضوعة بشكل أفقى ومعشــق بها ذراع، ويخترق كلا من شقى الرحى محور الذراع، وشقة الرحى العليا أصغر من الشــقة الســفلى، وتتحرك الشــقة العليا بفعل القوة المحركة، وتوضــع الاثنتان فى وضع مائل حتى لا يتمكن الدقيق عند خروجه من النفاذ إلا عن طريق فتحة فى الشــقة الســفلى للرحى، ويستقبل الدقيق فى سلة أو قفة. (٥٨)

وفــى وصف بيوت رشــيد جــاء أيضا: وكل بيوت رشــيد من طوب ضــارب إلى الحمرة، غامق اللون، ويعود ذلــك إلى درجة احتراق هذا الطوب، وقد لاحظنا أن البيوت فى الإســكندرية مبنية كلها من الحجر الجيــرى وملاطها من الجير والرمل، وتتآكل الحجارة فى هذه البيوت

بفعل الطقس البحرى الذى يسود هذه المدينة بينما يبقى الملاط سليما، ويختلف الأمر عن ذلك فى رشيد اختلافا بينا، فالطوب فى رشيد يقاوم تقلبات الهواء، لكن الأسمنت الذى يثبته هو الذى يتساقط.. (٥٩)

ثم قام بوصف بيت أحد البكوات بصورة مفصلة يظهر عناصر البناء وطرق التهوية والإنارة باستخدام المشربيات والشرفات التى تطل منها النســاء على الخارج دون أن يراهن أحد. ووصف الأثاث الذى كان منه ما هو مصنوع من الجريد:

"أمــا الأثاث فعبارة عن أرائك موزعة بدائر الحجرة تشــكل مقاعد منخفضة، واســعة ومريحة، وتتكون هذه المقاعد من حشيات ومساند كبيــرة من القطن، وتبســط هذه الحشــيات على مقاعد يبلــغ ارتفاعها ١٥ – ١٨سـم، وهى إما مصنوعة من ألواح خشبية أو هى مجرد أقفاص من الجريد..". (٦٠)

* * *

منتجات النخيل فى إدكو ورشيد

عملية تصنيع الجريد لم تكن وليدة اليوم أو العصور الحديثة، بل هى عملية قديمة قدم الحضارات نفسها فى بلاد الرافدين، وفى مصر الفرعونية حيث بينت النقوش على جدران المعابد والمقابر أن الفراعنة استخدموا الجريد لصنع أقفاص الطيور.

وتذكر موسوعة الحرف التقليدية: فى حضارة "العمرة" ظهر نوع من الأقفاص ذات أحجام متعددة وقد اتخذت مقاصف الجريد لدعم جوانب هذا النوع.. ومنذ بداية عصر الأسرات الفرعونية ظهرت أقفاص من الجريد مستطيلة الشكل بأحجام متباينة، وكانت تستخدم فى الأغراض نفسها التى تستخدم فيها حاليا، وقد صورت على جدران المعابد والمقابر فى مشاهد صيد الطيور منها ما كان على جدران مقابر البرشا التى ترجع إلى الدولة الوسطى وترى فيها الطيور داخل أقفاص مستطيلة ومتنوعة الأحجام.. (٦١)

كذلك تذكر الموسوعة نفسها أن الجريد دخل فى صناعة (الأكواخ) ويمكن الاستدلال على ذلك من أعمال الحفر على قطع العاج التى ترجع إلى عهد الأسرة الفرعونية الأولى التى تصور نوعا من الأكواخ بيضاوية الشكل مصنوعة من جريد النخيل المتقاطع بشكل منحرف، ومثل هذه الأكواخ مازلنا نراها عند قبائل البشارية فى جنوب مصر... (٦٢)

أيضا تذكر الموسوعة أن الجريد استخدم فى صناعة "الأسرة": .. وقد سجلت هذه الصناعة على إحدى جدران مقبرة "حسى رع" بسقارة والتى ترجع إلى أوائل الأسرة الثالثة.. وبعد أن يأتى وصف السرير كما ذكر "كويبل" يذكر أن الأسرة الخامسة ظهر فيها نوع آخر من الأسرة، كذلك ذكر كيف أن سكان مصر العليا – حيث تكثر العقارب صيفا – يفضلون الأسرة من الجريد نظرا لنعومة سطحه وانزلاق أرجل العقارب عليه فلا تصل إلى النائم. (٦٣)

كذلك ذكرت الموسوعة استخدام المصريين القدماء للجريد فى صنع (المقاعد) و(الأبواب) و(المراوح) و(صناعة الصنادل والنعال) و(فخاخ الجريد).

أما فى العصرين الإغريقى والرومانى، ثم القبطى ومن بعده العصور الإسلامية والحديثة، فقد تواصل الاهتمام باستخدام الجريد فى عمل أشياء متعددة تشابهت مع مثيلاتها قديما، إلا أن عملية التصنيع صارت أكثر شيوعا وأكثر تنوعا وأكثر اهتماما بالعنصر الجمالى بعد أن كانت تصنع لبعدها الوظيفى فقط.

وفى العصرين المملوكى والعثمانى، تشير الوثيقة رقم ٥٨٥ / أوقاف إلى: وجود حرفة القفاصين بحى باب البحر كما كان لهم حمام خاص بهم، أطلق عليه اسمهم: حمام القفاصين، ويبدو أن القائمين بهذه الحرفة كانوا ينتجون الأقفاص التى كانت تصنع من الجريد، وكانت هذه الأقفاص لازمة للأفران التى انتشرت داخل الحى خلال العصرين

المملوكـى والعثمانـى، وكذلك فى نقل السـلع الغذائية إلى الأسـواق للبيع.. وقد أشـار المقريزى فى خططه إلى وجود سوق للقفيصات أمام القبـة المنصورية؛ حيث أوضح أن هذه السـوق أعـدت لجلوس أناس على تخوت تجاه شـبابيك القبة المنصورية (بالنحاسـين)، وفوق تلك التخـوت أقفـاص صغار من حديد مشـبك بها الطرائف مـن الخواتيم والفصـوص، ويبدو أن هذه الحرفة قد انقسـمت إلـى طائفتين: الأولى لصنـع الأقفاص التى يسـتخدم فيها الجريـد، والأخرى تخصصت فى صنع الأقفاص الحديدية. (٦٤)

* * *

الخُص.. الكابينة.. القُرشية..

فى مدينة إدكو، حيث المساحات الشاسعة المطلة على البحر، والتى كانت صحراء رملية تتناثر فيها العديد من الكثبان الرملية، انتشرت أشجار النخيل، عمل أهل المدينة على استغلال المساحات التى تفصل بين الأشجار فى زراعة أشجار أخرى مثل الجوافة والمانجو، وبين هذه الأشجار وأسفل منها، زرعوا الخضروات المتنوعة. وعملية الزراعة بهذه الطريقة المكثفة والمستمرة طيلة العام استوجبت قضاء أوقات طويلة بجوار الأراضى التى يتم استصلاحها وزراعتها أولا بأول. لم يجد المزارعون سوى جريد النخيل لإقامة أكواخ (خُص) تقيهم حرارة الشمس اللاهبة، والخُص هو كوخ مخروطى الشكل قمته بالأعلى وقاعدته دائرية ترتكز فى الرمال. ولإقامة الخص يتم غرس الجريد بسعفة بصورة قائمة فى الرمال وبصورة منحرفة ليتجمع عند القمة وبصورة دائرية.. ويتم ترك فتحة فى اتجاه البحر، وفتحة أخرى فى الاتجاه المقابل لضمان عملية تجدد الهواء فيرطب من حرارة الرمال الشديدة فى الصيف..

والخص عادة يسع شخصا واحدا أو اثنين على الأكثر لصغر حجمه نظرا لعدم ارتكازه على دعامات خارجية تسمح بزيادة مساحته، ولذلك كانت الحاجة لإقامة (الكبائن) الأكثر اتساعا.. وتأخذ الكابينة

شـكل المربـع بدعامـات جانبية من أخشـاب جذوع أشـجار النخيل والزيتـون وغيرها، ثم تشـد إليها الأكياب المصنوعـة من البوص، ثم يتم (تحزيمهـا) بالجريد بصورة عرضية مـن الداخل والخارج ويربط الجريد معا بالحبال المصنوعة من ليف النخيل والذى تم استبداله بعد ذلك بحبال قطنية وذلك لحمايتها من السـقوط عند اشتداد الريح، وكى تتحمل السقف الذى يتم استخدام الأكياب أيضا فيه..

ولأهميـة الجريد ولاحتياجهم له طيلة العـام، يقومون بعد عملية تقليـم أشـجار النخيـل بتخزين الجريـد بربطه فى ربطـات (حزم) كبيرة، ثم يتم صفها بصورة قائمة متجاورة كى يحمى بعضها بعضا من تآكل الشـمس ومن المطر أيضا الذى ينزلق سـريعا إلى الأرض فتبتلعه الرمال.. والشـكل الذى يتم تخزين الجريـد فيه بهذه الطريقة يعرف بـ (القُرَشية)..

وفى قرى رشيد حيث يغلب عليها التربة الطينية، استخدم الجريد مع البوص لإقامة المنازل التى يتم تغطيتها بعد ذلك بالطمى أو الطين.. إلـى جانب كبائن التصييف على النيل والبحر وعرائش الحيوانات فى القرى...

وفى موسوعة وصف مصر / مدينة رشيد ذكر عالم الحملة الفرنسية "جولـوا" ما شـاهده فى قرية من القرى التى مـر عليها فى طريقه إلى رشيد:

".. عرجنا على قرية يشـى مظهرها بالبـؤس، فبيوتها عبارة عن أكواخ فقيرة، دائرية الشكل تعلوها أبراج الحمام، وسقف هذا النوع من

الأكواخ مصنوع من جذوع النخل وتمتلئ الفراغات فيما بين هذه الجذوع بقش البوص ويغطى ذلك كله بالطين.. ثم يكمل قائلا: وهناك أشجار منتشرة فى هذه الجزيرة "وارسى" وفى ذلك الجزء الموازى لها من الدلتا، تنحصر فى أشجار النخيل والتوت.. (٦٥)

وعن البلح ذكر جولوا: وتعد ثمرات النخيل (البلح – التمر) غذاءهم الرئيسى، وهم يأكلون معها فى الوقت نفسه قليلا من الخبز المصنوع بدون خميرة وعلى شكل أقراص صغيرة مستديرة ورقيقة.. (٦٦)

وعن الحرف التى دخلت فيها منتجات النخيل، ذكر جولوا أيضا: وتأتى صناعة القفف من حيث الجودة بعد صناعة الغلايين، ويتكون نسيجها من سعف النخيل، وهذه الشجرة (النخل) مصدر بالغ الأهمية فى مصر، فهى تعطى بوفرة بالغة ثمارا حلوة المذاق يتخذ منها السكان طعامهم الرئيسى، كما تستخدم جذوعها فى عمليات البناء، وتصنع من أغصانها الأقفاص التى يقام فوقها الفراش والأرائك، أما السعف أو الأوراق الصغيرة التى توجد بطول جانبى الأغصان فتستخدم فى صنع جدائل، تخاط بمهارة وسرعة بأحبال رفيعة صنعت هى أيضا من ليف النخيل. وتستخدم القفف بكثرة فى رشيد، وهى تستعمل فى تعبئة كل أنواع البضائع والحبوب كما تستعمل فى نقل الأرز.. وتصنع الأقفاص من فروع النخيل. ويمسك صانعها بمثقب يحدث به الثقوب اللازمة فى فروع النخيل لكى تجمع بعد ذلك الأجزاء التى تكون القفص. (٦٧)

ولأن الجريد، وهو (أوراق) النخيل، لا يسقط أبدا من تلقاء نفسه كباقى أوراق الشجر، فإن عملية التقليم تتم بصورة يدوية، أو كما يطلق

أهالى إدكـو على عملية التقليم ب (الحِلاقة) وذلك بعد موسـم انتهاء جنى محصول البلح، وعند عمليـة التلقيح أو (التذكير) التى تتم أيضا بطريقة يدوية.

وأنواع الجريد المفضلة فـى التصنيع يتم الحصول عليها من نخيل السمانى والحيانى وبنت عيشة والعرابى والفروخ المنزرعة فى مدينتى إدكو ورشـيد والقرى التابعة لهما فى مواسم ما قبل وبعد جنى البلح، وفـى باقى العام يتم جلبه من الصعيـد. ووفقا لبعض الإحصائيات يبلغ عـدد النخيل فـى مدينة إدكو وحدها حوالى مليونى نخلة تنتشـر فى كل مكان فى المدينة نفسـها أو فى القـرى التابعة لها. ولذلك كان من الطبيعـى أن يتأثر الأدباء بمنظر غابات النخيل التى تحيط بهم من كل جانب. فيكتب أديب إدكو (محمد محمود زيتون):

نمشى علـى الرمـل تحمينا كتائبه ولا دبيب لنـا نمشى علـى العشـب
ما إن وصلنـا رياض النخل مقصدنا حتى جلسنا نريح النفس من تعب

ويقول أديب رشيد الكبير على الجارم:

ونشأت فى ظل النخيل يهزنى شـوق إلـى أفيائهـا وغـرام
إنـا كبرنـا يـا نخيـل وحبنـا بيـن الجوانـح شعلـة وضـرام
كم طوقت منك القدود سواعدى ولكـم شفائى مـن جنـاك طعام
ولكم هززت فتاك حين حملته كالأم تلهى الطفل حيـن ينـام

وكما أوضحنا أن كل أجزاء النخيل لها من الفوائد والاسـتخدامات التـى يصعب معهـا أن نقول إن هنـاك فاقد أو أجزاء غير مسـتخدمة

منها. وهكذا الحـال فى بلد المليونى نخلة (إدكو) وبلد المليون نخلة (رشـيد). فقد تعود أهل إدكو ورشيد على استخدام كل جزء من أشجار النخيـل التى يحرصـون على زراعتها ليس فقط فـى المزارع، بل أمام بيوتهم لو لم تتح لهم فرصة امتلاك أراض لزراعتها فى مجموعات تبدو مـن بعيد كأنها غابات كثيفة. وفى القرى، اسـتخدمت جذوع النخيل لبنـاء البيوت المصنوعة من الطوب اللبن، أو تلك البيوت الصيفية التى تقام على الساحل بجوار شاطئ البحر، أو فى الأراضى الرملية بالقرب من الكثبان الرملية التى كانت تشـتهر بها مدينة إدكو، والتى تحولت إلى محاجر يتم نقل رمالها إلى المدن السـياحية الجديدة. أما الجريد فيستخدم لإتمام عملية البناء بتسقيف المنازل وعمل الأسيجة والكبائن (أكشاك الظل). والجريد أيضا يدخل فى صناعة أقفاص الفاكهة وغيرها من منتجات تسـتخدم فـى نقل وتعبئة ثمار النخيل نفسـه وغيره من الفواكـه والخضـروات. كذلك فى صناعة الكراسـى والأسـرة وغيرها مـن قطع الأثاث. ويسـتخدم سـعف الجريد فى عمل القفـف والغلقان والسـلال، ويتم فرمه لعمل حشوات جيدة للكراسى. و يستعمل الليف البنـى الذى يكون محيطا برأس شـجرة النخيل، فـى صناعة الحبال والمكانـس اليدويـة ومهفات الذبـاب وفى صناعة الحصـر (البرش) وحشـوات للمقاعد والوسائد. كما يستخدم أيضا لعمل (الأحزمة) التى يسـتخدمها (الحلاقون) الذين يقومون بحلاقة النخيل (قطع الجريد) فى تسلق أشجار النخيل لتقليمه أو تذكيره. كذلك يستخدم (الكرناف)

فى الأفران فى عملية الخبيز للعيش البيتى، هذا قبل أن يتم استبدال الأفران الطينية بأفران الغاز. و تستخدم أوراق وجذوع وبقايا تقليم النخيل فى الوقود وعمل السماد البلدى. وكذلك كانت عذوق الثمار (التى يكون البلح متعلق بها) تستخدم لعمل مكانس (مقشات) قبل المكانس البلاستيكية. كذلك استخدم النوى أيضا فى إنتاج الفحم البلدى.

ومن منتجات الجريد، ما يتم تصنيعه إلى اليوم مثل (أقفاص تعبئة ونقل الخضروات والفاكهة، والكراسى وبعض قطع الأثاث الأخرى، أقفاص الخبز) ومنها ما يصنع بصورة أقل أو على نطاق ضيق مثل (أقفاص عصافير الزينة، أقفاص الدواجن)، ومنها ما اختفى ولم يعد أحد يطلبه أو يذكره لوجود بدائل أخرى مثل (مطارح الخبيز، بنانى الحمام ذات الأدوار المتعددة، والأسرة)..

وحتى نهاية التسعينيات، كان أصحاب مزارع النخيل فى إدكو يجلبون القفاصين من رشيد لتصنيع ما يحتاجونه من أقفاص لتعبئة البلح وباقى الثمار التى يقومون بزراعتها جنبا إلى جنب مع النخيل. حيث كانت مجموعة القفاصين من رشيد، وقرية البرج بصفة خاصة، تأتى إلى عائلة ما من العائلات، وتمكث لديها لمدة أسبوع تقريبا يتم فيه عملية التصنيع للجريد ما بين أقفاص وعدايات، وبعض أقفاص الطيور لنساء العائلة، ثم تنتقل إلى عائلة أخرى وهكذا دواليك. أما اليوم فقد اختفى ذلك الطقس تماما، ولم يعد القفاصون يأتون، فلم يعد يطلبهم أحد بعد أن تم الاعتماد على الأقفاص البلاستيكية بصفة

أساسـية، ومن يريد أقفاص الجريد من أصحـاب مزارع النخيل، يتفق مـع (معلم) بأن يأخذ مـا لديه من جريد، مقابـل أن يمده بعدد ما من الأقفاص، ويتم الاتفاق عند التسليم على التكلفة المادية بعد خصم أجرة الصنايعية، ومراعاة سـعر القفص وقتها فى السوق. وهذا ما علمته من مجموعة القفاصين الذين التقيتهم فى رشيد وقرية البرج.

* * *

الجريد من إدكو والتصنيع لرشيد

رحلة استكشافية إلى رشيد وقرية البرج

وجدت أنه من غير المجدى انتظار مجىء القفاصين كما فى السابق إلى مزارع النخيل الشاسعة فى إدكو، أو تجمعهم كما فى السابق، كى تتم عملية رصد أحوال حرفة القفاصة والعاملين فيها. كان لابد من الذهاب إليهم فى رشيد. وكان فى المخيلة أننا ما إن نصل إلى رشيد، سنشاهد الجريد محتلا جدران المنازل والشوارع، والقفاصين يعملون كعادتهم، بينما تصطف بجوارهم مئات الأقفاص والعدايات والكراسى والترابيزات، كما كان هذا المشهد يبدو للناظرين فى شوارع إدكو ورشيد منذ أقل من عقد من الزمن.

ولكن كان الواقع غير ذلك تماما.. ففى رشيد نفسها، كان على أنا وزميلى (عماد خميس) – الذى تطوع بأن يكون دليلا فى رحلة البحث عن القفاصين، لمعرفته الجيدة بشوارع رشيد نظرا لعمله فى مجال الصحافة المحلية – أن نسأل المارة، ونكرر السؤال كى نصل إلى (سوق الحدادين) حيث أخبرونا أن هناك يوجد حوش المعلم (أحمد أبو على) حيث يعمل بعض القفاصين.

– عبر السوق القديم، ومرورا ببعض المنازل الأثرية، ثم حارة كريت وسوق الحدادين، وصلنا إلى (حوش) الحاج أحمد أبو على. دلنا عليه السعف المتناثر على باب الحوش والجريد المستند على

الجــدار ينتظــر دوره فــى التصنيع. وفــى الداخــل، وبالقرب من البــاب الذى وجدناه مفتوحا، كان عــم "مصطفى" يجلس فى حجرة صغيرة، ضعيفة الإضاءة، مقشــرة الحوائط من أثر الرطوبة، والباب هو مصــدر التهوية الوحيد. كان العم مصطفــى يجلس وأمامه جذع شــجرة صغير، مدفون معظمه فى باطن الأرض باستثناء جزء صغير يستخدمه فى الارتكاز والدق والتقطيع وهو ما يعرف ب (الأورمة)، مســتخدما يدا واحدة فى الدق على قطع الجريد والأخرى فى المسك والتحكم فى ثبات القطعة التى يعمل بها بمساعدة قدميه، مستعينا ببعض الأدوات البسيطة مثل السكين الذى يطلق عليه أيضا "السلاح" وهو المستخدم فى تقطيع الجريد وشقه، و"التقيلة" وطولها حوالى ٥٠ ســم وتستخدم فى الدق على مواســير التخريم، ويتم أخذها من شــجر الكافور أو التوت أو خشب الســنط، و"الخفيفة" وتصنع أيضا من شــجر الكافور أو التوت، وتستخدم للدق على العيدان وإدخالها فى الثقوب، وهناك "مســمار العلامة" الذى يستخدم لتحديد أماكن عمل الثقوب، أما "الماســورة المجوفة" تستخدم لتخريم العوارض والمربعات، سواء بثقوب كبيرة أو صغيرة.

كان لابد لى من تدوين كل كلمة يقولها عم (مصطفى جمعة حبلص، ٦٦ عامــا) فما يرويه، هو قصة كل من امتهــن حرفة القفاصة، وعانى من أحوالها المتقلبة، وتابع تدهور أحوالها. ولكن التدوين كان يستلزم أن يكون اهتمامى بالقلم والورقة، وأنصرف عن التواصل مع عم مصطفى

بعينى، فأفوت على نفسى الفرصة لرؤية تلك التعبيرات التى ترتسم على وجهه وهو يتذكر الماضى حلوه ومُره برضا تام. وكان من غير الإنسانى فى نظرى أن أترك الرجل ينظر إلى الكاميرا ويتحدث.. فجلست بجواره أستمع إليه وأسجل فى ذاكرتى ما يقول..

– أخبرنى عم مصطفى أن أهله كانوا يعملون بالصيد كعادة الناس فى رشيد وإدكو حيث تقيم عائلته (حبلص). تعلم مهنة القفاصة من أشقائه الذين تتلمذوا على يد المعلم (على الجعيدى) رحمه الله والمعلم سيد الجعيدى. شقيقه الأكبر (جابر جمعة حبلص) توقف عن مزاولة المهنة نظرا لكبر سنه (٨٤ عاما) وضعف حركته. وشقيقه الآخر (محمد) نظرا لسوء حالة المهنة لجأ إلى فتح محل بقالة إلى جانب مزاولته حرفة القفاصة تبعا لما يستجد من أعمال قفاصة تتوقف على حالة السوق والموسم والطلب.

الحاج مصطفى له ابنة (سماح) خريجة كلية التربية وتعمل فى مدرسة "على الجارم"، وله أيضا ولدان حصلا على شهادات متوسطة، ورفضا العمل أو حتى تعلم مهنة القفاصة نظرا لما كانا يشاهدان من مجهود يبذله الوالد دون أن يكون هناك مقابل مادى يعوض هذا الجهد. فمحمد يعمل فى مضرب الأرز، وعادل يعمل فى صناعة الحبال، وفى الصيد. لم يعملا فى القفاصة ورفضاها منذ الصغر..

الحاج مصطفى، منذ بدايات عمله، يزاول حرفته فى هذا المكان (حوش) الذى يملكه المعلم (الحاج أحمد على طه) الشهير بـ الحاج (أحمد أبو على) الذى جئنا نبحث عنه..

عــم مصطفى درس عاما واحدا فــى المرحلة الابتدائية ونظرا لضيق ذات يــد والده الذى أنجب ١٣فردا بنين وبنات، فعندما طلب من والده قلم رصاص كان ثمنه وقتها أقل من مليم رد عليه والده مازحا: يا شيخ إتفض يعنى هاتطلع باش كاتب؟! فخرج من المدرســة، وكانت مدرسة (علــى الجارم) التى تطل على نهر النيل، وتــدور الأيام وتصبح ابنته ســماح معلمة فى المدرسة نفســها، وابنه يعمل فى مكان قريب منها. عم مصطفى يحدد الأمكنة بعدا وقربا من المدرسة التى حرمته الظروف الاقتصادية من مواصلة تعليمه بها..

عندما ســألته عن عــدد الأقفاص التى يســتطيع تصنيعهــا يوميا، بســط يده اليمنى أمامــى، ليخبرنى أنه يعانى عجزا فــى يده اليمنى منذ شــبابه – كســر فى الإبهام – نتيجة مزاح مع صديق، تســبب فى تمزقــات مختلفــة لم ينتبه لهــا، وأدت إلى عدم قدرتــه على تحريك أصابعه.. ولكن على الرغم من ذلك، واصل العمل بيد واحدة دون فترات راحــة أو عطلات، حتــى فى ظروف المــرض لأن القفاصة مصدر رزقه الوحيد ولو نام مريضا ســينقطع مصــدر رزقه اليومى الذى تعتمد عليه أسرته. أخبرنى أنه كان يصنع ٥٠ قفصا باليوم، وأجرة يده تتراوح بين ١٤٠ قرشا إلى ١٥٠ قرشا عن القفص العادى، الذى يستخدم لمرة واحدة والــذى يتم بيعــه ب ٣جنيهات أو جنيهين ونصــف وذلك تبعا لحالة الســوق. وهو لا يصنع العدايات ولا قطع الأثاث من الجريد، وأخبرنى بتركز صناعة الأثاث حاليا فى قرية البرج.

سألته عن مشـاركة الفتيات فى العمل، فلفت الانتباه إلى أنهم فى رشيد لا يسمحون للبنات بممارسة المهنة ولكن فى قرية البرج تساهم البنات بالعمل مع أهلهن.

أمـا الحاج "أحمد على طه" وهـو صاحب المكان، يعمل لديه حاليا اثنان فقط من القفاصين، بعد أن كان يعمل لديه العديد منهم، ولكن بعد تدهور الحال (لأسـباب سـنذكرها لاحقا) ترك هؤلاء المهنة إلى مهن أخرى.

يجلب المعلم أحمد على طه الجريد من جزيرة شندويل بسوهاج من تاجر تعود على التعامل معه منذ زمن بعيد.

المعلم أحمد أبو على يشكو من تدهور سوق الأقفاص بسبب الصناديق البلاسـتيك، إلى جانب عدم نقل الأقفاص التى يتم تصنيعها إلى أماكن أخرى كالسـابق، واقتصار التسويق على السوق المحلى.. كذلك نتيجة عدم وصـول الجريد فى موعده من الصعيد نظـرا لارتباك حركة النقل والظروف الأمنية فى السنوات الأخيرة..

تركنا الحاج مصطفى حبلـص، والحاج أحمد أبو على، لنبحث عن أماكن أخرى يتم فيها تصنيع الجريد لرصد الظروف الاجتماعية لمزاولى الحرفة، ولمعرفة مدى انتشـار الحرفة. مشـينا عبـر (حارة كريت) سـوق الحدادين، حيـث عثرنا على محل آخر به عـدد (٢ صنايعية). المكان عبارة عن محل قديم يطل على الشارع مباشرة، سيىء التهوية، صاحب المـكان هو صاحب العمـل المعلم" محمـد هِندس" الصنايعية

"إبراهيم الفالح" ٦٩ سنة، لديه ٣ بنات، و٣ أولاد، يعملون استورجية وفـى بيع الخضروات، كلهم رفضـوا العمل فى القفاصة منذ الصغر. أما "السيد إمام" ٦٧ سنة، لديه ثلاث بنات وولد وحيد (علاء) رفض أيضا العمـل فى القفاصـة.. كانا يصنعان العدايات فقـط، خلافا لعم مصطفى حبلص الذى يصنع الأقفاص العادية فقط. و(العداية) تستخدم لتخزين الخضـروات فى الثلاجات وخاصة البلح فى موسـمه. ويأتيهم الجريد أيضا من الصعيد عن طريق تاجر وسـيط وليس مباشرة مثل المعلم أحمد أبو على..

أخبرانى أيضا بوجود صنايعية الأثاث المنزلى من الجريد فى قرية عزبة البرج، كذلك القفف والغلقان وكافة منتجات الجريد والسعف...

هكـذا كان علينا مواصلة رحلة البحث عـن القفاصين متجهين إلى عزبة البرج.

ركبنا "ميكروباص" بمحـازاة النيل للذهاب إلى قرية البرج حيث منطقـة القلعة التى يتركز حولها القفاصون ومنهم من يصنع الكراسـى ومختلف قطع الأثاث.

وصلنا عزبة البرج وسرنا متجهين نحو النيل. مررنا بشارع العمدة حيث لاحظنا بعض القفف، وبعض (الأشـرطة) المضفورة من السعف، مستندة إلى جدار. سألت عنها سيدة تقف بجوار منزلها، فأخبرتنى أن هناك من اشـتراهم وأن من تصنعهم هى (الحاجة أم فتحى) وهى سيدة عجوز تقيم مع أولادها، وأخبرتنا أيضا أن هناك سيدة أخرى فى المكان نفسـه تقوم بصناعة الغلقان. سـألنا أخريات وعلمنا أن صناعة منتجات

السعف من قفف وغلقان وما شابهها، تقتصر الآن على بعض السيدات المسنات، ولا يتم نقل الحرفة إلى الصغيرات كما كان يتم فى السابق.

واصلنا السير بمحازاة النيل حيث تنتشر قمائن الطوب إلى أن دلنا الجريد المستند على الحوائط على مكان آخر يعمل به قفاصون. وكان عبارة عن مكان كبير تحت التجهيز كمحل أسفل عمارة سكنية ويتم استخدامه كمكان لمزاولة الحرفة، ريثما تنتهى الطلبية ينتقلون بعدها لمكان آخر. وجدنا به شابين يصنعان أيضا العدايات... محمد البراوى (٣٣ عاما) متزوج لديه بنتان، وولد واحد (عطية).. فى الصباح، يعمل فى مصنع الطوب حتى الظهر، ثم يأتى إلى هذا المكان لصنع الأقفاص حتى المساء بلا راحة كى يفى بطلبات واحتياجات أسرته.. من الممكن أن يصنع فى اليوم ٣٠ عداية.. أفضل جريد محلى بالنسبة له هو (السمانى) فى عدم وجود الصعيدى.

زميله محمد البقيرى (٣٥سنة) متزوج ولديه ولدان وبنت واحدة. يشترك مع زميله فى ظروف العمل والحياة نفسها واستبعادهما فكرة إشراك الأبناء فى المهنة.

ومنهما عرفنا أن هناك من يقوم على شئون المهنة من شراء الجريد وتوزيعه محليا على القفاصين وغيرها من أمور، وهو الحاج محمود الفقى.

سألتهما عن مزاولة البنات للقفاصة، فأخبرانا أن فى المنطقة (القبلية) من البرج هناك فتيات يشتركن فى تصنيع الأقفاص والعدايات

وغيرهـا نظرا لمزاولة عائلاتهـن الحرفة نفسـها. أى إنهن لا يعملن أجيرات عند الغير.

سـألتهما عن السـعف أين يذهب بعد نزعه من الجريد، قال إنهما سمعا أن هناك ماكينة لفرم السعف لاستخدامه لعمل الحشوات للأثاث، ولكنهما لا يعرفان أين توجد....

واصلنا السـير فى الطريق نفسـه متتبعين آثار الجريد، وبمحاذره شـاطئ النيـل. وجدنا "حوش" كبيـر يبدو أنه مخصـص لعملية فصل السعف عن الجريد، حيث كان الجريد مستندا على الحائط، وفى أكوام قائمة يستند بعضه على بعض فى شكل مخروطى، وبجواره السعف فى ربطات متوسـطة الحجم اسـتعدادا لنقلها على ما يبدو إلى من سيتولى تحويله إلى قفف وغلقان.. لكن لم نعثر على أحد فى المكان، ومن لقائنا السابق، استنتجنا أن العاملين بالقفاصة فى أعمال أخرى، مثل مضارب الأرز أو قمائن الطوب القريبة، وما إن تنتهى أوقات العمل الرسـمية، يأتون لمواصلة تصنيع الجريد...

وصلنا إلى محل تصطف فيه كراسـى الجريد، وبعض الترابيزات، لنعلم من المشـهد أنه مـكان لتصنيع الأثاث مـن الجريد وليس لصنع الأقفاص..

قابلنا المعلم (محمد راشد البراوى) ٦٥ سنة، يقيم فى برج رشيد، ومكان عمله فى دخلة قلعة برج رشـيد فى مواجهة النيل مباشرة.. له ولدان وبنت، الولدان تعلما منه الصنعة (صناعة الأثاث من الجريد) منذ

الصغر، وتعودوا على العمل معه فى الإجازات الدراسية.. وهذا يؤكد مقولة إن (نجارة الجريد) لا تعرف الغريب وإنما يتوارثها الأبناء والأحفاد. الآن له ابن أصبح مدرس لغة فرنسية يعمل فى الإسكندرية، وبحكم عمله لم يعد يعمل معه فى المهنة. والابن الثانى يعمل معه فى صناعة الكراسى إلى جانب تعبئة البلح فى موسمه.. المعلم محمد البراوى، وعلى العكس ممن قابلناهم من القفاصين، يعتبر صناعته رائجة. ففى الوقت الذى يخضع صنايعى الأقفاص لحالة السوق المتقلب والمتدهور، يتواصل الطلب على الأثاث المصنوع من الجريد، بل له أيضا زبائنه الذين يأتون إليه، ودائما عنده طلبات تفوق ما يصنعه بنفسه، ولذلك يستعين بصنايعية آخرين فى أماكن أخرى.. وعلى الرغم من انتشار الكراسى البلاستيك، فإن الكراسى وغيرها من قطع الأثاث المصنوعة من الجريد، تحافظ على قيمتها ومكانتها وذلك لقلة الصناع الذين يجيدون تنفيذ التحف وقطع الأثاث من الجريد، وبالإضافة إلى ارتفاع أسعار البلاستيك مقارنة بالجريد. المعلم (محمد راشد) عمل فى سيوة لمدة (١٥) عاما فى قرية سياحية تعتمد على منتجات الطبيعة، فكل أثاثها من الجريد وأفرع الشجر.. والمبانى فيها من الحجر مع استخدام البوص الفارسى والطين السيوى، وتضاء بالمشاعل.. إلى جانب عمله فى تصنيع الأثاث من الجريد، يقوم بترتيب عمليات شراء لأنواع معينة من النخيل، يتم تصديرها إلى أوربا وأمريكا عن طريق وسيط من إدكو. عندما سألته عن كيفية تعلمه لصناعة الأثاث، فكما علمت منه أنه بدأ بصناعة الأقفاص

مثل غيره، أجابنى بأنه سافر للعمل فى العراق، وعاش هناك منذ عام ١٩٧٩م إلى عام ١٩٨٦م، وهناك تفاجأ بمهارة العراقيين فى تحويل الجريد إلى قطع أثاث فى قمة الجمال والإبداع. فبدأ بتعلم صناعة الأثاث، ولكنه وضع اهتمامه على تعلم صناعة الكرسى والترابيزة. ثم أصبح له عمله وتجارته الخاصة، حيث كان كبار القوم يأتون ويشترون منه ويجزلون له العطاء.

وعن طريقة حصوله على الجريد، أخبرنى أنه لا يشتريه مباشرة من أصحاب المزارع، بل عن طريق تاجر وسيط فى القرية هو من يأتى بالجريد من المزارع المحلية سواء فى إدكو أو رشيد أو من الصعيد فى أوقات عدم توفر الجريد المحلى. وأفضل الأنواع التى يفضلها فى صناعة الأثاث جريد نخيل (بنت عيشة) و(الحيانى). ويبلغ تكلفة عدد ألف جريدة محلى حوالى ٧٠٠ جنيه. وعدد ألف جريدة صعيدى حوالى ١٤٠٠ جنيه حيث تؤثر تكلفة النقل فى الثمن.

ويتقاضى الصنايعى (١٥ جنيها) أجرة يده فى الكرسى، ويباع الكرسى ب ٤٠ جنيها.

* * *

تصنيع الجريد

مما أخبرنا به من قابلناهم فى رشـيد وقرية البرج، نستطيع إجمال مراحل التصنيع ومواصفـات الجريد وأنواعه، والمنتجات التى يتم تصنيعها، سـواء هذه التى مـا زالت متواجدة، أم تلك التى لم يعد أحد يطلبها فتوقفوا عن تصنيعها.

أولا: المنتجات التى يدخل الجريد فى تصنيعها

- أقفاص تعبئة الخضروات سـواء التى تسـتخدم لمرة واحدة، أو التى تستخدم لتخزين الخضروات فى الثلاجات (العدايات).
- القفـص المصنـوع من جريد النخل فى رشـيد خفيـف، عوده رفيع لاستخدام ماسورة التنحيف الرفيعة.
- الأثاث المنزلى (ترابيزات، كراسى، أرائك، علاقات ملابس).
- أقفاص الخبز المسطحة.
- أقفـاص الطيور(أقفـاص نقـل الدجـاج، أقفـاص عصافيـر الزينة، بنانـى الحمام متعددة الأدوار) مع ملاحظـة أن هذه المنتجات يتم تصنيعهـا بالطلـب مقدما. وقد وجدنـا قفصا لعصافيـر الزينة عند الحاج (محمد البراوى) ولكنه قديم ومستعمل، وأخبرنا أنه يصنعه فقط بالطلب، فهو يحتـاج وقتا وجهدا أكبر من غيره من المنتجات الأخرى.

– مطارح الخبيز، وحوامل المرايات (وهى منتجات لم يعد أحد يصنعها لندرة الطلب عليها نظرا لرخص نظيرها المصنوع من الخشب).

ثانيا: كيفية الحصول على الجريد

محافظة البحيرة التى تتبعها (رشيد وإدكو) من المحافظات الزراعية التى تنتشر فيها أشجار النخيل، ولذلك يعتمد القفاصون على الجريد المحلى الذى يكون متوفرا فى موسم ما بعد انتهاء المحصول، وفى الفترة التى تسبق عملية التذكير لتهيئة النخلة لعملية التلقيح باستبعاد الجريد الجاف، وتخفيف ما عليها من جريد، فى عملية التقليم أو ما يطلق عليه أهل المدينتين (الحلاقة) التى تتم يدويا باستخدام (المسيف) وفى بعض الأحيان يتم استخدام (البلطة) ولكن ليس بصورة شائعة لأن استخدامها به شىء من العنف، أما المسيف (وهو أداة طويلة معدنية لها رأس صغير منبسط وحاد يستخدم فى عملية القطع، أما يده فمعدنية طويلة يلف حولها خيط مصنوع من ليف النخيل لتجنب احتكاك راحة اليد به).. ويستخدمون (الحزام) لتسلق النخلة وذلك بلفه حول وسط (الحلاق) والنخلة معا، ثم يقوم بتسلق النخلة بتبديل حركة القدمين صعودا مع تحريك الحزام حول جذع النخلة. وهى عملية يسيرة بالنسبة لمن تعودها، أما المبتدئ يجد صعوبة فى ضبط حركة الجسد المعتمدة على تتابع حركات الساقين والقدمين (العاريتين) بصورة متوالية. ويعتبر (الحلاق) الإدكاوى

أشــهر من تسلق النخيل برشــاقة، كذلك منهم من يترك علامة مميزة على رأس النخلة تدل عليه. فمن عادة الحلاق أن يقطع الجريدة بالجزء الأخير منها والمســمى (كرناف) أو كما يطلق عليه (كناف)، أو يقطع الجريد تاركا الكرناف على النخلة ليجف ويكون درجة تزيد من طول النخلة فى المقام الأول، وأيضا لتساعد فى عملية التسلق فيما بعد. وفى واحــدة من الكرانيف يقــوم الحلاق بقطع معين مثلث الشــكل أو غيره لتدل عليه عند النظر إليها فيما بعد تلقائيا. الكرناف يســتخدم كوقود فى الأفران الطينية، وباقى الجريدة هو الذى يتم تصنيعه.

أمــا الفترات التى لا يتوفر فيها الجريد المحلى، وهى الفترة التى تتزامــن مع ظهــور ثمار البلح حتــى تمام نضجه وحصــاده أى ما بين شــهرى إبريل وأكتوبر، يجلبون الجريــد من الصعيد كما أوضح لنا من أجرينا معهــم المقابلة. أيضا علمنا أنه يتــم الحصول على الجريد من ذكور النخيل فى فترة إثمار إناثها، حيث تعامل شجرة النخيل المثمرة كالمرأة الحامل التى على وشــك الولادة وتحتاج إلى رعاية ويمنع عنها الأذى حتى لو كان قص شــعرها (تقليم الجريد). أيضا علمنا أن القفاص يستطيع التمييز بين أنواع الجريد، وأيضا يميز جريد الذكر الذى يمتاز بســماكته وصلابته وقسوة أشواكه وســعفه مقارنة بشوك إناث النخل وســعفها. يستخدم جريد الحيانى أو بنات عيشة، فى صناعة الأثاث، أمــا جريــد البلح "الزغلول" فلا يســتخدم إلا فى الأقفــاص والعدايات الصغيرة، ولهشاشته لا يصلح للمقاعد أو الأسرة.

عملية تصنيع الجريد

بعد تقليم النخيل، يتم تنظيف الجريد من الخوص والسعف، وبعدها يتم رصه قائما على الجدران، ويُترك فى الشمس من أسبوع إلى ثلاثة أسابيع حتى يجف تماما.

وهنا تبدأ المرحلة الثانية وهى مرحلة توضيب الجريد، حيث يتم تقطيعه وتنعيمه "بالمجرد" حتى يصبح فى حجم معين يسمى "رفايل" وهى قطع خشبية صغيرة تستخدم فى تكوين القفص. ويتم التقطيع حسب الشغل المطلوب وبمقاسات محددة ومعينة تتماشى مع الشىء المراد تنفيذه بساطور أشبه بعدة الجزار يطلق عليه "سكينة"، وباستخدام "إسطمبات" أو "فورم" كمقاسات ثابتة للعديد من القطع المختلفة التى يتم تصنيعها. ويتم تخريم قطع الجريد باستخدام قطعتين من الخشب؛ الأولى مربعة «ثقيلة»، بها مجرى، لتخريم الجريد، وأخرى مستطيلة أقل ثقلا من الأولى تُستخدم فى تركيب قطع الجريد بعد تخريمه مع بعضها البعض بالطرْق بها. وهناك الماسورة المصنوعة من الحديد المجوف بطول ارتفاع القفص، يدخل فيها العود لتحديد سمكه ومساواة جوانبه..

نماذج من منتجات الجريد

١- القفص أو العداية: يتراوح طول القفص أو العداية ما بين ٤٥ سم إلى ٥٥ سم، وعرض ٣٠ سم إلى ٤٠ سم، وارتفاع ٣٠ سم.. وهناك عدايات

أكبر مقاسا حسب الطلب ونوع المنتج الذى سيتم تخزينه أو نقله فيها، وبالتالى تحتاج إلى عدد أكبر من الجريد.. ويتراوح الوقت اللازم لصناعة العداية أو القفص من ٤٠ دقيقة إلى ساعة ونصف حسب حجم القفص ومهارة القفاص.. والقفص المفرد الخفيف، يستخدم لمرة واحدة ويتم نقل الخضروات الفواكه فيه. أما الأقفاص المزدوجة أو العدايات تكون أكثر متانة ويعاد استخدامها مرات متعددة فى نقل وتخزين الفواكه والخضروات فى ثلاجات الحفظ.. ولصناعة القفص يتم تجهيز ٢ برواز علوى وسفلى عن طريق تداخل الأجزاء فى بعضها البعض لربط الزوايا الأربع وتكوين مربع، ثم يتم تركيب جزء من الجريد يسمى الطويل يكون عبارة عن الجانب الطويل من القفص، ودوائر القصير فى الجانب القصير من القفص، ثم يربط القفص بالقيد "الزوايا"، مع وضع عدد من قطع الأخشاب الصغيرة فوق بعضها البعض فى أحد الجوانب "الزوايا" التى تميز تاجر أو علامة تجارية عن الآخرى فى الأسواق، ثم يتم تسقيف القفص بالأخشاب حتى تتكون قاعدته. وأكثر المواسم رواجا لبيع الأقفاص، موسم محصولى الجوافة والطماطم اللذان تنتشر زراعتهما فى إدكو ورشيد.

٢- قفص الدواجن: له مقاسات مختلفة، فعرضه ٥٠ سم، وارتفاعه ٤٠ سم، وطوله يتراوح بين متر ومتر ونصف. وهو يتكون من طول وعرض وسقف ويد، وله فتحة فى منتصف أحد جانبيه الطوليين، أو فى السقف نفسه.

٣- الكرسى الجريد: يبلغ ارتفاع الكرسى حوالى متر أو اكثر، والعرض يتناسب مع مساحة القرصة (القعدة) التى يبلغ عرضها ٥٥ سم والظهر على هيئة شيش.. أما العيدان فمحمولة على هيئة عاشق ومعشوق مع عكسها فى الأخرام. وتكون الكرسى من:

- الظهر: يتكون من عدد ٥ عوارض تستخدم لتركيب الشيش الذى الذى يحيطه عادة برواز.
- ٢ تكايا، والتكايا هى مسند الكرسى وتتكون من ٣ قطع من الجريد مثقوبة ٢٦ ثقبا وتثبت القطع الثلاث بعيدان أو مسامير من الجريد لتصبح قطعة واحدة تشكل التكايات.
- برواز لعمل الشيش (شيش التكاية) لتثبيت التكايات وإعطاء شكل جمالى للكرسى، ويتكون من ١٢ عودا مركبة بطريقة العاكس والمعكوس.
- مقصات من الجريد (٧مقصات) لتثبيت الكرسى، أما تجميع الكرسى كاملا فيتم من خلال عود يمر بمنتصف مجموعة المقصات.
- القاعدة أو (القرص) عبارة عن ٢٠ قطعة جريد تزيد أو تقل حسب سمك الجريد تجمع مع بعضها البعض من خلال الأخرام وترص فوق بعضها البعض من خلال الأعواد.
- ظهر الكرسى: يثبت ويحمل بشيش الظهر وتركب له حلية نصف دائرية من الجريد للتجميل (عدد ٣ حليات تثبت داخل البرواز والشيش فى الظهر). (٦٨)

- الأرائـك: ولا تختلف صناعة الأرائك عن صناعة المقاعد، سـواء من حيث الطريقة أو مراحل العمل، إلا من حيث المقاسـات، مع إضافة دعامات أسفل منتصف الأريكة لتقوية القاعدة. (٦٩)

٤- يصنـع أيضا أقفاص الخبز.. وهو عبارة عن مسـتطيل مسـطح ليس له ارتفاع، متوازى الأضلاع، مفرغ من الداخل.... ويسـتخدم لحمل العيش وتهويتـه حين يخرج من الفرن ويكـون على درجة حرارة عالية ولا يمكن حمله على قفص. (٧٠)

٥- أبـواب الجريد، تصنع أبواب الحدائق المنزلية وأعشـاش الطيور مـن الجريد الذى يتم صفـه بجوار بعضه بعضا، وتسـتخدم خيوط القطن أو القماش لتشبيكه معا... وهو بسيط الصناعة لا يحتاج ورش متخصصة بل أحيانا يقوم به أصحاب العشش والحدائق بأنفسهم.

٦ - قفص تعبئة التين، وهو صغير الحجم على شـكل مستطيل، طوله يتراوح بين ٢٥ سـم و٣٠ سم، وعرضه من ١٨ إلى ٢٠ سم، وارتفاعه ٨ سم . وهو عبارة عن أربعة جوانب وقاعدة، ويستخدم لمرة واحدة لنقل وبيع التين...

٧- سـتائر الجريـد: التى انتشـر اسـتخدامها كفواصـل وحوائط فى المقاهـى وبالقـرب من الصـوب الزراعية فى إدكو ورشـيد وكذلك الشواطئ السياحية.

٨- الكبائن والبرجولات والمظلات فى أماكن الترفيه.

* * *

المنتجات القائمة على سعف النخيل

السعف ومراحل الإنتاج

السعف أو (الخوص) هــو ورق النخيل الذى يتــم نزعه (خرطه) من الجريد بعد عملية تقليم أشــجار النخيل. ويستخدم الخوص فــى عمل المقاطف والقفــف والغلقان وغيرها من منتجــات تتميز بها بعض المناطق عن غيرها. فمثلا فى المناطق الريفية فى رشــيد وإدكو، يتم استخدام خوص أشــجار النخيل المحلية، المستخلصة من الجريد فــى صنع المنتجات التى تلبى حاجاتهــم اليومية مثل القفف والغلقان ومــا إليها من أوعية لحمل وتخزين منتجــات المزارع، ودون الاهتمام بالعنصر الجمالى باســتخدام الســعف الملون مثلا؛ نظرا لقسوة الحياة والأغــراض التى يســتخدمون فيها القفف والغلقان مثل نقل كل شــىء يتعلق بالأرض من تربة وسباخ ومحاصيل وغيرها من أمور فتكون متانة المنتــج أهم من زخرفته. وهــذا يختلف عن مناطق أخرى مثل النوبة، التى تتجاور فيهــا الوظائف النفعية مع الوظائف الجمالية للمنتج كما تذكر موســوعة الحرف التقليدية: "..فبينما كانت سقوف الدور تبنى مــن أغصان وجذوع النخيل، نجد أن الجدران الداخلية تغطى بالحصير المشــغول من الخوص المزدان بزخارف ملونة ورســوم توحى بطبيعة المكان وخصوصيــة عاداته وتقاليده ونمط معتقداته، وكانت ترص فوق الحصيــر أطباق الخوص، التى كانت تســتخدم إضافة إلى ذلك فى حفظ

الغـلال، وتقديم البلح والفيشـار للضيوف، كانت سـقوف الدور أيضا تتدلـى منها الأطبـاق المعلقة فى خيـوط مشـغولة ومجدولة بطريقة هندسية متناسقة. (٧١)

واسـتعمالات الخوص/السـعف وطرق تصنيعه تتوقف على حسب موقعـه من النخلة، ولذلك ينقسـم الخوص إلى قسـمين "النوع الأول، وهو لب الخوص (الذى يقع فـى قلب النخلة) وتتميز بنصاعة بياضها وصغر حجمها، وسـهولة تشـكيلها وتسـتخدم غالبا فى صنع السلال الصغيرة والمشـغولات الدقيقة، وتتسـم بإمكانية زخرفتها واستخدام أكثر من لون فى المنتج الواحد وتوزيع الألوان بنظم هندسـية جمالية. أمـا النـوع الثانى يتكون من بقيـة أوراق النخيل العاديـة وهى أوراق أكثر خشـونة وطولا ويتم غمرها بالماء لتطريتها حتى يسـهل جدلها وتشـكيلها، ويسـتخدم لصناعة الحصير والسـلال الكبيرة والمقاطف التى تسـتخدم غالبا لأغراض زراعية (جمـع المحاصيل – حمل التبن والردم)، أو استخدامها للتسـوق حيث تتسع لمشتريات عديدة إضافة إلى سـهولة حملها فوق الرأس، ولدى باعة المحاصيل والحبوب حيث يقومون بعرض بضاعتهم فيها. ويتم اسـتخدام وحدات زخرفية كبيرة على المنتجات، وغالبا لا تستخدم معها ألوان، لكن قد تطعم فى بعض المنتجات بضفر الخوص الأبيض مع الأخضر. (٧٢)

ويصنع من خوص النخلة أنواع متعددة من السـلال التى تسـتخدم كأوعيـة لحفظ حاجيات المنزل، وتقديـم الأطعمة والمخبوزات وحمل

الخضــروات وعرض الحبوب والغــلال عند العطاريــن وباعة الغلال، والحصيــر ومفارش الأرضيات (البرش) وســجاجيد الصلاة بأشــكالها المختلفة البيضاوية والمستطيلة، والمراوح والشنط، إضافة إلى البرانيط وبطانة العمامة والمنشات. (٧٣)

مراحل تصنيع سعف النخيل

- تقطيع الجريد من النخيل، ثم تقشير السعف عنه وهى العملية التى يطلقون عليها باللهجة المحلية فى مجتمع الدراسة (خرط الزعف).
- يتم فصل السعف الأبيض الحديث النمو والذى يكون قريبا من (قلب) رأس النخلة، ليصنع منه الســلال الصغيرة، والمشغولات الدقيقة، والأشكال الزخرفية لمرونته وسهولة تشكيله.. وغيرها..
- يتم جمع باقى السعف الأخضر والذى يكون أطول وأكثر جفافا وصلابة ويحتاج إلى غمره بالماء قبل تضفيره، واستخدام هذا الضفائر فى صنع القفف والغلقان والمقاطف وما إليها من منتجات يتم استخدامها فى نقل وحمل الحبوب وكل ما له علاقة بالاحتياجات اليومية للفلاح.
- عملية التضفير، هى عملية جدل الســعف كما ضفائر شــعر الرأس، ليكــون فى النهاية شــريط طويل جاهز للتشــكيل.. وغالبا ما يكون من عليه مهمة التضفير غير الذى يشــكل هذه الضفائر إلى منتجات مختلفة بعد ذلك.

- يتم غمر الضفائر فى الماء لتكسب الليونة التى فقدتها فى الفترة الفاصلة بين انتهاء عملية الجدل وبداية عملية (الخياطة) أو التشكيل.
- عملية الخياطة، باستخدام إبرة من الصلب طويلة وسميكة يطلقون عليها (مسلة أو مخراز) وباستخدام خيط من القطن المفتول بعد أن كان الخواصون يستخدمون الليف المفتول إلى حبال فى خياطة المنتجات وصنع الأيدى للقفف والمقاطف والغلقان..
- تبدأ عملية خياطة الضفيرة من القاعدة لتتسع تدريجيا وصعودا لتشكيل المنتج المراد، وعادة ما يلزم عمل القفة شريط (ضفيرة) طولها ١٠ أمتار تقريبا والصغيرة (الغلق) ٥ أمتار.
- بعد الانتهاء من الخياطة، يتم (تقفيل) المنتج، بخياطة الطرف الدائرى بالليف المفتول للحفاظ على القوام وعدم تفككه سريعا عند وضع الأحمال الثقيلة. ومن الليف أيضا يتم عمل يدين فى جانبى القفة أو المقطف، بصورة تحافظ على اتزانها عند حملها..

* * *

منتجات السعف السائدة فى منطقة الدراسة

وكما تركزت حرفة القفاصة ونجارة الجريد فى رشيد وقراها بشكل رئيسى، تركزت أيضا حرفة الخواصة. ولكن على العكس من القفاصة التى لم يمتهنها من إدكو سوى قلة قليلة عملت لدى صنايعية من رشيد فى بادئ الأمر، ثم جعلوا من رشيد مكانا للعيش والعمل معا بعد ذلك، فإن الأمر يختلف بالنسبة للخواصة. فعن طريق بعض السيدات من قرى رشيد وخاصة سيدات قرية البرج اللاتى تزوجن من رجال فى إدكو، تم نقل الحرفة إلى نساء إدكو. كذلك انتقلت المهنة عن طريق مخالطة الصنايعية، والاشتراك فى خرط السعف، ونجارة الجريد، ثم عملت الكثير من الأسر فى الخواصة وصناعة القفف والغلقان بشكل رئيسى وأساسى. بحيث كانت الأسرة وخاصة النساء فيها تتشارك (ضفر) السعف، وتأتى مهمة الرجال الأساسية فى خياطة الضفائر. وكانت العملية لا تستلزم مكانا مستقلا، بل تكفى صالة البيت، أو أى مكان داخل البيت كى تتحلق حوله العائلة وتمارس الحرفة التى تسترزق منها عن طريق البيع للجيران ممن يملكون أراض زراعية، ومواشى وغيرها، وكذلك بيع المنتج بالجملة إلى تجار يقومون ببيعه خارج المدينة. ثم انحسرت المهنة واقتصرت على كبار السن من سيدات ورجال الأسرة، ولم يعد أحد يورثها إلى الأولاد

والأحفـاد كما فى السـابق لتسـارع وتيرة الحياة التـى جعلت فترات اجتماع أفراد العائلة من الأشياء النادرة مقارنة بالسابق قبل عصر النت والتقـدم التكنولوجى الذى جعل الجميع يتواصلون عن بعد مسـتغنين عن الجلسـات المسـائية والصباحية كالعادة. وأصبح الأحفاد يرون أن الحـرف اليدوية تحط من قيمتهم، وهذا ما عرفته عندما سـألت أحفاد الست (أم رياض) التى كانت تصنع القفف والغلقان، هل منهم من تعلم عنها الحرفة؟ استنكروا الأمر وأخبروا أنهم منعوها قبل وفاتها بفترة مـن مواصلة الضفر كما تعودت منذ أن انتقلـت من قرية البرج لتتزوج من جدهم.. فليس من اللائق أن تعمل جدتهم قففا فى عصر الجالاكسى والتابلت! كذلك بوفاة الحاجـة (فاطمة) وزوجها الحاج (محمود) لم يعد أحد فـى منطقة جامع العجمى يعرف كيف تصنع القفف والغلقان حيث كانا يتشـاركا الأمسـيات يصنعانها وهما بيـن الأحفاد وأحفاد الأحفاد.

ومن منتجات سعف النخيل:

١- صناعة القفة والغلق وغلق الصيد

القفـة، من أكثر المنتجات التى يتـم صنعها وتداولها، وتصنع من خوص النخيل النظيف الأبيض، ولا يشـترط عمره ولكن يشترط بياضه وألا يكون قد تحول إلى اللون الأسمر أو الأحمر بفعل الشمس. و(الغلق أو المقطـف) هو الصغير منها وكل غلق يسـتهلك ٥٠٠ خوصة تقريبا،

تضفر فى شـريط عرضه ٨ سـم بطـول ٧ بيوع، والبـاع "متر ونصف" وتستهلك القفة الكبيرة ١٠ أبياع. أما "الداير" الذى يتم إنهاء القفة به يستخدم قماش النايلون المستورد لصناعة هذه "الداير" بعد أن كان يتم صنعه من ليف النخيل.

وهناك من الحرفيين من لا يسـتخدم البيوع فى القياس، ويستخدم الأمتـار، وعلى هذا تلزم عشـرة أمتار من الضفيـرة لعمل قفة كبيرة، وخمسـة أمتار لعمل الغلق. ويستغرق عمل القفة من ساعتين إلى ثلاث سـاعات، والغلق يستغرق سـاعتين تقريبا، ودون حساب الوقت الذى أخذه صنع الضفيرة.

أما غلق الصيد فيلزمه ثلاثـة أمتار أو أقل من الضفيرة. وهذا الغلق يستخدمه الصيادون الهواة والمحترفين لحفظ الأسماك التى يصيدونها بصورة فردية باستخدام البوص (سواء الغاب، أو ماكينات الصيد) وذلك للحفاظ على الأسماك من التلف حيث يسمح بخروج المياه وتجدد الهواء وعدم ارتفـاع درجة الحرارة وهذا على عكس الحاويات البلاسـتيكية التى تستلزم وضع ألواح الثلج بها لضمان عدم تفسخ الأسماك..

٢- صناعة البرنيطة وبطانة العمامة

تعتبـر مدينـة رشـيد بمحافظة البحيـرة من أهم معاقـل صناعة البرنيطة وبطانة العمامة إلى جانب بعض المنتجات الخوصية الأخرى الأقل شـهرة من الخوص، حيث ترجع شـهرة صناعة الخوصيات فى

رشـيد إلى هذين المنتجين.... وتعتمد صناعة البرانيط وبطانة العمامة على خـوص أبيض من نخيـل مدينة الفيوم غالبا، وهو يسـتخرج من الجزء الداخلى من سعف النخلة وحجمه أصغر من السعف الخارجى، ويمتاز بالطراوة والغزارة وبملمسـه الشمعى، وأفضل الشهور للحصول عليه هو شهر يوليو، ويحصل عليه من التجار. (٧٤)

خطوات صنع البرنيطة

- يتم بل الخوص بالماء لتطريته.
- يتم تبخير الخوص بغرض إكسـاب الخوص لونه الأبيض، وتتم هذه المرحلـة داخل غرفـة صغيرة يطلق عليها المبخـرة، حيث يوجد بداخلهـا بناء مربع الشـكل يشـبه الفرن، ويوجد فـى ضلعين من أضلاعـه الأربعة فتحتان، فى الضلع الأول تقع الفتحة فى الأسـفل وفى الضلع الآخر تقع الفتحة فى المنتصف ولها أرضية من الخشب، فى هذه الفتحة توضع علبة صغيرة بداخلها مادة الكبريت الزراعى، يقوم العامل بإشـعال الكبريت وتركه لمدة ليلة كاملة، حيث يعمل الدخـان المتصاعد من احتراق الكبريـت على التفاعل الكيميائى مع شرائح الخوص مما يؤدى إلى تبييض الخوص.
- يتـم فرز الخوص بعد تبخيره، وهـى عملية يقوم بها أفراد معينون مدربون على فرز الخـوص طبقا لدرجات ألوانه: الأخضر والأبيض والسـمنى. يسـتخدم الخوص بجميع ألوانه فى عمل البرانيط، وإن

كان سعرها يتراوح بين الانخفاض والارتفاع وفقا لدرجة لون الخوص المستخدم فيها، حيث تكون البرانيط البيضاء أغلى سعرا، يليها انخفاضا السمنى فالأخضر. ثم تأتى عملية تضفير الخوص.

- يتم تضفير الخوص: ويتم ذلك على شكل شرائط، يبلغ عرض الشريط حوالى ٢ سم بينما يبلغ طوله ١٢ مترا وهو القدر الذى يستخدم فى شغل البرنيطة.
- الخياطة: بعد التضفير تبدأ مرحلة خياطة أطراف هذا الشريط من ناحية العرض فى شكل حلزونى دائرى، يبدأ من قمة البرنيطة وينتهى عند الحواف.
- كبس البرنيطة: بعد الخياطة تسلم البرانيط بعد ذلك إلى المكوجى الذى يقوم بإدخال البرنيطة فى اسطمبة معدنية من الألومنيوم، ثم تسخن المكواة المثبتة فى مكبس، ويكبس المكواة عليها، حتى تأخذ قمة البرنيطة شكلها شبه البيضاوى.
- تركيب الإطار: بعد مرحلة الكبس تتم حياكة إطار من البلاستيك أو القماش حول حافتها لحماية أطراف الخوص ومنحها شكلا جماليا." (٧٥)

بطانة العمامة

"عند تصنيع بطانة العمامة يتم أولا تشريح الخوص، وذلك بتثبيت أسنة الشراخة (عبارة عن أداة حديدية مستطيلة، طولها حوالى ١٥ سم،

وعرضهـا ٣ سـم، يبرز منها من إحـدى ناحيتى العـرض إبر صلب، يتراوح عددها بين الأربع والخمس، وذات مسـافات متسـاوية دقيقة) على الخوصة بيد وسـحب الخوصة من تحتها باليد الأخرى، لتتحول الخوصـة الواحدة إلى شـرائح طولية رفيعة متصلـة جميعها بنهاية الخوصة مـن الناحية العريضة (القاعدة) التى يحرص العامل على عدم الاقتراب منها إذ تشكل قاعدة للشرائح الرفيعة. تقوم السيدات بتضفير هـذه الشـرائح الرفيعة من الخوص، حيث تبـدأ بضفر ثلاث خوصات مـع بعضها البعض، ثم تضم إليها الخوصـة تلو الخوصة صانعة قطعة متصلة شبه مستطيلة، تبلغ مساحتها حوالى ٣٠×٦٠ سم، ثم تقوم بضم طرفيها بطريقة التضفير أيضا، صانعة فى النهاية شـكلا دائريا، وهو الذى سيستخدم فيما بعد عند صانعى الطرابيش كبطانة للعمامة.

وباسـتثناء عملية فرز الخـوص فإن جميع مراحـل صناعة بطانة العمامة تقوم عليها النساء. وهى تستخدم كبطانة داخلية للعمامة التى يرتديها قراء القرآن والمنشدون ورجال الأزهر والشيوخ على رؤوسهم، حيـث تتسـم بقدرتها على جعل الطبقـة الخارجيـة للعمامة مفرودة ومنتصبة، كما تعمل على تشرب العرق الناضح من الرأس. (٧٦)

٣- صنع حزام النخيل

وهو حـزام يصنع من حبال الليف بصفة أساسـية، مع اسـتخدام الخوص، يسـتخدمه طالع النخـل فى الصعود إلـى النخلة بلفه حول

وسطه والنخلة معا، وبتبديل حركة الساقين والحزام يصعد وينزل كذلك بمساعدة الحزام. ويبلغ طول الحزام حوالى ثلاثة أمتار. ومقسم إلى جزء عريض على هيئة الشريط يصل طوله متر ونصف وهو الجزء الذى سيكون محيطا بوسط طالع النخيل، ويتصل به الجزء الثانى الأنحف والمفتول والذى سيحيط بالنخلة ليعود ويدخل فى حلقة متصلة بنهاية الجزء العريض ليتم إحكامه حول خصر طالع النخيل. ويبدو شكل الحزام لمن ينظر من بعيد وكأنه ثعبان كوبرا بجسده الطويل ورأسه العريض عن باقى جسده. ومن الملاحظ أن الأحزمة هذه تم استبدالها بالأحزمة البلاستيكية، وبقيت الأحزمة الأصلية من الليف والسعف يتم توارثها، والحزام الذى عثرنا عليه، كان لدى (الحاج عبد المنعم ٧٣ عاما) وقد ورثه عن والده.

* * *

منتجات الليف

ينبت الليف فى رأس النخلة عند منطقة التقاء قاعدة الجريدة برأس النخلة نفسها، ويتم نزعه مع الجريد الذى يتم تقليمه، ويتميز الليف الأقرب من رأس النخلة بنعومته وبلونه البنى الفاتح لبعده عن أشعة الشمس والظروف الجوية الأخرى، بالمقارنة بالليف فى الطبقات الخارجية حيث يأخذ اللون البنى الغامق ويتميز بخشونته. واستخدم المصريون القدماء الليف فى صناعة الحبال. ووجدت "صورة على أحد جدران قبر (رخميرع) فى طيبة تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة، وتوضح خطوات جدل أو فتل حبال الليف، وهى الطريقة التقليدية التى ظلت مستمرة إلى اليوم... وقبل تصنيعه ينقع الليف فى الماء، ثم يفصل الناعم عن الخشن منه، ثم يقطع على شكل نساير طولية للتضفير، تجمع فى وحدات صغيرة من أجل تصنيعها". (٧٧)

وكما ذكرنا يستخدم الليف لصناعة أيدى القفف والغلقان، أحزمة النخيل، وكذلك المقشات وغيرها. ومما ذكرته موسوعة الحرف التقليدية من المنتجات التى يستخدم فى صناعتها الليف؛ ليف الاستحمام، الذى يستخدم فى تنظيف الجسد، ويتميز بقدرته على تفتيح مسام الجسم. وليف المواعين الذى يستخدم فى تنظيف أوانى الطعام المعدنية. كذلك يستخدم الليف لعمل الحبال، حيث يفتل الليف

بعــد بله فى الماء وتطريته ليصبح طيعا عند الاســتخدام. ويقوم صانع الحبال (الفتال) بفتل هذه الألياف ودمجها مع بعضها البعض بطريقة الضفائر، حتى يحصل على الطول المراد وفقا لنوعية الاســتخدام. ومن الأغراض التى يتم استخدام الحبال بها كما جاء فى الموسوعة نفسها: عمــل أيادى المقاطف و القفــف المصنوعة من الخوص، وكذلك إطارات للجوانــب لتقوية المنتج، ربط ســقالات البناء، ربط البهائم فى جذوع الأشجار والأوتاد الخاصة بها، صناعة الخطام الذى تخطم به الماشية، صناعة الرسن لجر الدواب، دواسات الأقدام وغيرها.

"وهناك نوعان من حبال الليف، أولهما: الحبل المزدوج (المجوز) وهو عبارة عــن حبلين رفيعين مضفورين ببعضهما البعض ويســتخدم فى الأعمال الخفيفة، والثانى هو الحبل المكســور وهو عبارة عن ثلاثة أحبــال مضفورة مع بعضها البعض وتســتخدم فى الأعمال التى تحتاج إلى متانة كربط السقالات والبهائم. (٧٨)

ومن الأشــياء التى يصنع منها الليف أيضا وفقا للموسوعة نفسها، المقشــات: حيث يتــم تجميع الليف وفرزه واختيــار الصالح منه، ثم يبلل بالماء ويرص ويجمع على شكل لفائف متجاورة، وهناك نوعان من المقشــات، الأول، المقشة ذات اليد الخشبية الطويلة وتناسب الكنس وقوفا، والنوع الثانى: مقشة بدون يد خشبية، و تكون يدها من الليف نفســه، ومن خــلال ضفيرة صلبة، وهى تناســب العجائز اللائى يقمن بالكنس وهن جالسات. حيث تتفرع من نهايتها أصابع رفيعة تدمج مع

بعضها البعض لتشـكل يد المقشة ثم يلف حولها خيط قوى ليمنح اليد صلابة. (٧٩)

وتذكر الموسوعة منتجات أخرى يدخل الليف فى صناعتها، ولكننا لم نجدها فى مجتمع الدراسة فى إدكو ورشيد مثل (الغبيط)، وهو عبارة عـن جرابين من الحبال المشـكل على هيئة مربعـات متصلة ببعضها البعـض بحبال أيضـا ويعلق فوق الدواب لنقل السـباخ داخل الحقول. و(الشبكة) وهى تشبه الغبيط إلا أن فتحاتها أوسع من فتحات الغبيط، وتسـتخدم فى حمل الأحمال فوق ظهور الجمال. و(الأسـرة والكراسى المعروفة بالعنكريب) حيث يسـتخدم كبديل للملة، وينسج على هيئة مربعات. و(الخلبة) حيث فى المناطق البدوية مثل سيناء، يعد الليف من متطلبات "الدلة" التى يصنع فيها القهوة العربية، ويصنع من ليف النخيل ما يسـمى (الخلبة) وتكـون بمقاس فوهة الدلة وتوضع داخلها لكى تمنع نزول الهيل (الحبهان) أثناء صب القهوة فى الفناجيل وهى أشياء تختص بها مناطق دون غيرها. (٨٠)

* * *

المستقبل
خامات النخيل والتنمية

بعد أن بينا أهمية كل جزء من النخلة، وكيف كان الأجداد يستغلون كل جزء فيها بما يلبى حاجاتهم من مأكل وأثاث وشراب ومأوى يقيهم الحر والبرد، كان لابد لنا أن نبحث عن الجهود الحديثة التى تبحث فى كيفية تحقيق التنمية بالعودة إلى منتجات الطبيعة، ومنها خامات النخيل، الذى يعد أكثر الأشجار شيوعا فى مصر إلى اليوم. عند جمعنا للمعلومات التى قد تفيد هذا البحث، ذكرت بعض الصحف خبرا عن فوز العالم المصرى والخبير التنموى د. "حامد إبراهيم الموصلى" الأستاذ المتفرغ بهندسة عين شمس ورئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للتنمية الذاتية للمجتمعات المحلية، بجائزة خليفة الدولية لنخيل التمر كأفضل مشروع تنموى والتى تبلغ قيمتها ٤٠٠ ألف جنيها.. وذهب الخبر، ولم يهتم أحد بالمشروع برغم أهميته فى بناء مستقبل مصر الحديثة باستخدام مواردها وبأيدى أبنائها. فالمشروع الفائز يتعلق بنشر الصناعات الصغيرة القائمة على خامات النخيل.

أهمية المشروع

– كما ذكر (سفير مخلوقات الله المهملة) الدكتور حامد موصلى، فإن

المشـروع نجح فى تصميم وتصنيع معدات مبتكـرة لتحويل جريد النخيـل إلى سـدائب منتظمة المقطـع وإلى ألواح منتظمة السـمك والعـرض، فضلاً عـن تصنيع ألـواح باركيه وألـواح كونتر مطابقة لمتطلبات المواصفات القياسية العالمية، وتضاهى مثيلتها المصنعة من الأخشاب المستوردة.

- تمكن من اسـتخدام الجريد المفروم فى صناعة الوقود الحيوى، وفى صناعـة أعـلاف الدواجن، كما صنعت الكارينـة من خوص النخيل الذى عادة ما يحرق حرقا مكشـوفا فى الحقول، وكلها نماذج عملية للنهوض بالريف المصرى اعتمادا على موارده المحلية.
- تم تنفيذ المشـروع وثبتت جدواه فى قرية القايات التى تعد من أفقر عشر قرى فى محافظة المنيا.

إلى جانب هذا المشـروع، قام دكتور موصلى، ببعض المشروعات البحثيـة والتطبيقية الأخرى والتى تتعلق باسـتخدام منتجات البيئة المحلية أيضا مثل:

- عدد من المشروعات بمحافظات الوادى الجديد والفيوم والصعيد منذ عام ١٩٩٣م لتحويل جريد النخل إلى ألواح خشـب كونتر بديلا عن استيرادها.
- مشـروع تحويـل جريد النخـل والمخلفات الزراعيـة إلى مركبات بيو بلاستيك "أقيم مصنع فى قوص لتصنيعها من مصاصة القصب".
- مشروع تصنيع الخشب الحبيبى من حطب القطن.

- مشروع صناعة الأخشاب من نواتج تقليم أشجار الفاكهة (١٩٩٩م).
- مشروع تحويل المخلفات الزراعية إلى أعلاف حيوانية بقرية كفر العرب مركز فارسكور عام ٢٠٠٨م.

ومما سبق نجد أننا أمام مشروع قومى متكامل كفيل بأن يعيد تشكيل وجه مصر المستقبل، ويتيح فرص العمل للجميع صغارا وكبارا نساء ورجالا لو دخل ضمن خطة التنمية للدولة...

كذلك هناك مشروعات ظهرت ثم لم يتم استكمالها فى سيناء قام بها مركز الدعم العلمى للتنمية بسيناء مثل، مشروع تصنيع منتجات النخيل والأرابيسك والعجوة. ويعتبر تصنيع خشب الأرابيسك من جريد النخيل طريقة مستخدمة لنشر هذا الفن الراقى فى الخرط العربى، إضافة لكونه مشروعا لتوفير فرص عمل جيدة ومهمة لمساعدة أهالى مركز ومدينة بئر العبد.

أما وحدة تصنيع العجوة والتى تعد كتراث أصيل لأهالى سيناء فقد تم إنشاء هذا المشروع كطريقة مستحدثة لصناعة العجوة بحيث يكون المنتج ذو جودة عالية وبشكل مناسب للتسويق. وهذا المشروع لو تم تعميمه فى محافظات مصر التى تشتهر بزراعة نخيل البلح، سيحقق عائدا كبيرا بالمقارنة بأى مشروع آخر، وسيضمن فرص عمل دائمة للجميع نساء ورجالا وأطفالا، وسيكون مصدر للدخل القومى لو تم تصديره إلى الخارج بعد أن يتم تطوير طرق التصنيع والتغليف. كذلك ينبغى الاهتمام بتجارب مماثلة فى استغلال البلح لصنع منتجات

فاخرة قامت بتجربتها نساء غزة وقت الحصار حيث قمن بنزع النواة من ثمرة البلح وفى مكانها وضعت لوزة محمصة، ثم غمرنها بالشوكولاتة الفاخرة، وبعدها وضعت ثمار البلح فى الثلاجة لتتجمد ولتكون جاهزة للتغليف والخروج بالمظهر الجذاب والطعم الطيب..

كذلك من المشروعات التى تقوم على أجزاء النخيل، ولا تتطلب معدات معقدة أو مجهودا مضاعفا، وفى الوقت نفسه تضمن عائدا من التصدير إلى دول الخليج وخاصة السعودية والبحرين والكويت، مشروع "تقطير ماء اللقاح" الذى يتم فى مصانع بسيطة ولها موسم محدد هى فترة النبات «تلقيح النخيل» وتستمر عملية التقطير من ٣٥ يوما إلى ٤٠ يوما وأول خطوة هى شراء (حبوب اللقاح) بغلافها ثم يتم تجميعه وغسله بالماء جيدا حيث يقطع طلوع النخلة الذكر أو ما يسمى كروف النخلة إلى قطع صغيرة ثم توضع فى قدر معدنى بغطاء محكم له أنبوبة معدنية تمر عبر بركة للتبريد، ثم تنتهى هذه الأنبوبة إلى زجاجة كبيرة أو عدة زجاجات متصلة بهذه الأنبوبة، ويتم وضع كمية من الطلوع ويضاف إليها كمية من الماء، وتتم عملية التبخير ويتحول البخار إلى ماء مشبع باللقاح ومن هنا سمى ماء اللقاح، ثم تعبأ هذه المياه بعد ترشيحها فى زجاجات تطرح للبيع بعدها.

هذا إلى جانب التوسع فى استغلال منتجات سعف النخيل وجريد النخيل التى ذكرناها سابقا، ولكن بطريقة منظمة ضمن مشروعات قومية بهدف استغلال موارد البيئة فى سد حاجات السكان، وطرح

المتميــز منهــا للتصدير. وكل هــذا يضمن فرص عمــل ودخل ثابت، لو تم برعاية حكومية تضمن الحياة اللائقة لأصحاب الحرف تشــجيعا لهــم على الاســتمرار وعلى تبنى جيل جديد يضمــن بقاء الحرفة بدلا من انقراضها بســبب الحالة الســيئة التى تحيــط بمجتمعات أصحاب الحــرف، وتجعل الحرف طاردة لأصحابها كما لاحظنا فى حديثنا مع أصحاب الحرف الذين تحدثنا معهم..

* * *

صناعة البــوص / الغــاب

البوص أو الغاب

من ضمن الملاحظات التى لاحظناها فى دراستنا الميدانية، تداخل صناعات منتجات النخيل من جريد وخلافه، باستخدام الغاب (البوص). فالكبائن يتم استخدام البوص فى صنعها، بينما يستخدم الجريد فى صنع الدعامات العرضية. وكذلك يتم عمل السياجات باستخدام عنصرى الجريد والبوص. لاحظنا أيضا تجاور مشاغل صنع الأكياب من مزارع النخيل والمجارى المائية فى أغلب الأماكن، ولذلك كان من الضرورى البحث عن بداية الاهتمام بالبوص وتصنيعه.

عن البوص / الغاب

البُوص – بُوص: البُوص البَوْص.

جاء فى المعجم الوسيط: والبُوص نبات من نباتات المستنقعات المعمَّرة من الفصيلة النجيليّة على هَيئة القَصَب والغاب. والجمع: أبواص.

يعرف الغاب أو البوص بأسماء أخرى منها القيصوب، البردى، والاسم العلمى له Phragmites australis ويعرف بالإنجليزى Common Reed وهو نبات معمر (أى إن دورة حياته تمتد إلى أكثر من سنتين) يتراوح طوله من ٢ إلى ٤ أمتار. ينمو النبات فى المناطق

ذات الرطوبة العالية والمياه المالحة ومجارى المياه كذلك فى المناطق التـــى تتجمع بها مياه الصرف الصحى أو فـــى المناطق المنخفضة التى تتجمع بهـــا مياه الأمطار أو بتلك المناطق ذات مســـتوى الماء الأرضى المرتفع. يعطى هذا النبات أزهارا فى صورة ســـنبلية تنتج عددا كبيرا من البذور، ويتكاثر إما بالبذرة أو بالســـاق الرايزومية. وتلعب الرياح دورا أساسيا فى انتشاره حيث تنتقل البذور من مكان إلى آخر بواسطة الريـــاح ومن ثم تنبت هذه البذور عند ســـقوطها فى بيئة زراعية عالية الرطوبة.

ينتشـــر نبات البوص فى عديد من الدول، يوجد فى مصر خاصة فى منطقة بحيرة إدكو، والمنزلة، وبورسعيد، ودمياط. وفى العراق ينتشر فى منطقـــة الأهواز، وفـــى نيجيريا فى منطقة الهوســـا، أى إنه ينمو فـــى الأماكن ذات الرطوبة المرتفعة والمياه المالحة والمجارى المائية. ولقطع البوص مواســـم كما أخبرنا المسئول عن مشغل (الشربينى)، من شـــهر مايو إلى شـــهر نوفمبر، ويترك باقى الأشهر حيث يكون ضعيفا وقصيرا ليكمل نموه ويصبح جاهزا للتصنيع.

ومنـــذ القدم دخـــل البوص بأنواعه فى صناعـــات وحرف تقليدية نشأت لتلبى الاحتياجات الحياتية للإنسان عبر الأزمنة والحضارات المختلفة. حيث استخدمه الفراعنة، والسومريون، وشعب الأنكا فى تشـــييد المنازل، والســـفن، والأثاث المنزلى. وفـــى معابد الأنكا فى البيرو، توجد رســـوم تظهر عليها قوارب مصنوعة من البردى. وعلى

الرغم من أن أغلب هذه الاستخدامات اندثرت بتطور الحضارات وتم استبدال البوص بالخشب والحديد والبلاستيك وغيرها، فإن هناك بعض الاستخدامات للغاب مازالت صامدة برغم كل الصعاب ومنها صناعة الأكياب / السداة.. وهى الصناعة التى رصدناها فى مدينة إدكو من خلال أول وأكبر مشغل (الشربينى) الذى يملكه ورثة الحاج الشربينى قديح الذى أدخل هذه الصناعة إلى المنطقة قادما من دمياط..

أنواع البوص المستخدم فى صنع الأكياب / السداة

١- الحجنة Common Reed

نبات معمر قائم ارتفاعه من ١ – ٤ متر حيث إن طوله يختلف باختلاف الأماكن التى ينمو بها، يتميز بأن الأوراق مرتبة فى صفين على جانبى الساق المستقيمة والنورة عليها أزهار تحمل شعر طويل وتتكاثر بالبذور والساق المدادة التى تنتشر تحت سطح الأرض إلى مسافات بعيدة. ينتشر فى جميع أنحاء الجمهورية. يعتبر هذا النبات من أخطر النباتات التى تعوق سير المياه فى مصر وذلك لتعمق جذوره إلى مسافات بعيدة فى الأرض وكذلك لسرعة نموه وانتشاره. ويتم شراؤه بالربطة (حزمة) وتكون كبيرة الحجم بالمقارنة بحزمة الفارسى، ويصل ثمن الربطة الواحدة ٦ جنيهات. ويحصلون عليه من (المكارية) الذين يقطعونه من المسطحات المائية فى بحيرة إدكو نفسها، ومن

الحمام، ودمرو فى البرلس وكفر الشيخ.. ويتراوح ثمن المتر الواحد من الكيب من بوص الحجنة ما بين جنيهين وجنيهين ونصف.

٢- الفارسى

يتم جلبه من المزارع المحلية، حيث يتركه أصحابها ينمو على أطرافها من أجل تحديدها وكذلك لصد الرياح.. وفى وقت تنظيف المزارع يتم التخلص من البوص الذى تكاثر بسرعة، وهناك من يقوم بدور الوسيط الذى يشترى من أصحاب المزارع ثم يبيع البوص لأصحاب المشاغل. وربطة الفارسى صغيرة الحجم لا تتعدى عدد ٥٠ بوصة تقريبا، وثمنها ٦ جنيهات أيضا. ويصل متر الكيب من البوص الفارسى ٥ جنيهات.

٣- الغاب العملاق Giant reed

نبات معمر قوى النمو ارتفاعه من ٤ – ٦ متر النورة بيضاوية رمحية الشكل يصل طولها إلى ٧٠ سم والأزهار تحمل شعر ناعم الأوراق مدببة عريضة ٣ – ٥ سم ذات لون بنى عند القاعدة الحافة خشنة والأوراق مرتبة فى صفوف متبادلة على الساق. يتكاثر خضريا بالسوق المدادة والبذور. ينتشر بكثرة فى المجارى المائية ويعوق سير المياه بها وينمو فى الأراضى الرطبة والمستنقعات المائية ويتحمل الملوحة وتستعمل سوقه كدعامات للنباتات. وفى صناعة قوائم العرائش التى يحتمى بها صناع الأكياب من الشمس وأحوال الطقس.

٤- البردى Cyperus papyrus

استخدمه الفراعنة فى صناعة ورق البردى وكذلك صناعة السفن فالقصب (البردى) خفيف جدا، ولكنه قوى وله القدرة على التحّمل. وينمو فى الأماكن نفسها لنمو البوص الحجنة، ويتم جلبه أيضا من الأماكن نفسها. ويتميز بنعومته وخفة وزنه. وهو يأتى فى ربطات أكبر بكثير من الحجنة.. ويصنع منه أكياب صغيرة تستخدم فى حماية رأس النخيل فى مرحلة الزراعة والنقل، وفى التغطية.. وهو لا يباع بالمتر مثل أكياب الحجنة والفارسى، بل بالقطعة التى لا تتجاوز المترين، ويبلغ ثمن القطعة ٤ جنيها.. وأشهر من ينسج هذا النوع من الأكياب، نساء كفر الشيخ فى بيوتهن لصالح المشاغل.

* * *

البردى تاريخ وحضارة

احتل البردى مكانة متميزة فى حياة المصريين القدماء، الذين صنعوا منه الورق، واستخدموه فى بناء المساكن، وفرشوا هذه المساكن بالحصير المصنوع من نبات البردى. وأصبح نبات البردى شعار مملكة الشمال التى كانت عاصمتها مدينة بوتو فى غرب الدلتا ومكانها تل الفراعين قرب مدينة دسوق الحالية. وفى المتحف المصرى يوجد طاولة (طبلية) صغيرة، مصنوعة من عصى وسيقان نبات البردى، مع أرجل حاملة خشبية. ولقد ربطت العناصر، الواحدة مع الأخرى، بواسطة سعف البردى. وكانت مثل هذه الطاولات فى المنازل المصرية كموائد للطعام والشراب. وكانت الطاولة (الطبلية) المعروضة بين العتاد الذى عثر عليه داخل مقبرة بدير المدينة، من عصر الأسرة الثامنة عشرة محملة بالخبز الجاف فى أشكال مختلفة.

وفى سوريا نجد صناعة "الحصائر السليمانية" وهى من أقدم الصناعات الموجودة فى "دمشق"، والتى يتم فيها صنع الحصائر بطريقة يدوية باستخدام نبات "البردى" الذى يزرع بصورة أساسية فى محافظة "إدلب". وعن طريقة الصنع تذكر (شبكة الإنترنت) أن بعد جنى نبات البردى، يتم قشر الطبقة الخارجية منه لأنها لا تصلح لصناعة "الحصائر"، ولكنها تدخل فى صناعة وجوه "الكراسى" وبعض

"السـلل" فهى ذات ليونة أكثر من الداخل على عكس "الخيزران" فهو صلب من الخارج ومرن من الداخل، ويعد نبات "البردى" أقل جودة من "الخيزران" لكنه يتميز بدفئه شتاء وبرودته صيفا.

وللبردى تاريخ عريق فى صناعة السفن، فقد صنع السومريون السفن الشراعية من قصب البردى فى منطقة أهوار جنوب العراق وهى أخصب منطقة فـى العالم بهذا القصب. بـل ذهب البعض ليعتبـر البردى المقوّم الأساسـى للحضارات النهرية القديمة فى العراق ومصر وغيرها.. وهذا ما حاول العالم النرويجى «ثور هيردال Thor Heyerdahl ١٩١٤ – ٢٠٠٢م» أن يثبته عندما صنع سـفنا من البردى منطلقـا من العراق حيث حضارة ما بين الرافدين بغرض الوصول إلى وادى النيل حيث حضارة الفراعنة.

* * *

رحلات ثور هيردال وسفن ورق البردى

فى أوسلو، عاصمة النرويج، التى تمتلئ بالمتاحف الأثرية، والقصور التاريخية، والقلاع والكاتدرائيات، يوجد تسجيل لرحلات ثور هيردال فى متحف «كون تيكى»، يحكى كيف أن هيردال بنى سفنا من الأخشاب، مثل سفن الفايكنج، ليثبت أنهم اكتشفوا أمريكا قبل كولومبس، ثم بنى سفنا من ورق البردى، ليثبت أن الفراعنة عبروا المحيط الأطلسى، ووصلوا إلى أمريكا اللاتينية، حيث توجد، حتى اليوم، أهرام تشبه أهرام مصر. كان هيردال يعتقد أن الماضى هو الطريق إلى المستقبل: (إننا كلما عرفنا الماضى أكثر، استطعنا التخطيط للمستقبل بصورة أكثر فعالية. ولا يستطيع المرء معرفة إلى أين هو ذاهب إن لم يستطع تتبع الآثار ومعرفة الاتجاه الذى جاء منه).

فى ١٩٦٩م شيد هيردال، قاربا من البردى وأسماه "رع" على اسم إله الشمس عند الفراعنة. واعتمد فى تصميمه على رسومات ونماذج قديمة لقوارب تعود إلى حضارات سومر والحضارة الفرعونية وأمريكا اللاتينية. وبدأ الرحلة من المغرب فى محاولة لعبور المحيط الأطلنطى، ولكن بعد عدة أسابيع أدخل طاقم المركب بعض التعديلات أدت إلى غرق "رع ١"، ولكن فى العام التالى ١٩٧٠م شيد قاربا آخر

من البردى أسماه "رع ٢"، واستخدم عمالا من منطقة بحيرة تيتاكاكا، وهو القارب الذى استخدمه فى رحلته التى بدأت من ساحل المغرب حتى شاطئ باربادوس.

وفى ١٩٧٨م شيد مركبه الثالث "تيجرس" فى منطقة مستنقعات جنوبى العراق المعروفة باسم «الأهوار»، تمكن خلالها من استخدام المعرفة المحلية فى بناء سفينة من حزم البردى، وأبحر به عبر الخليج العربى مرورا بباكستان ووصولا إلى مضيق باب المندب ليبقى هناك مدة خمسة أشهر فى البحر لا يستطيع الحصول على تصريح بالدخول إلى الأراضى العربية كى يكمل رحلته التى قصد بها إثبات ارتباط كل الحضارات ببعضها بعضا. وعندما أصابه اليأس من الحصول على التصريح قام بإحراق تيجرس احتجاجا على الحروب الدائرة وقتها فى العالم...

ولم تكن رحلات هيردال سوى محاولة لاستعادة التاريخ عبر التقليد لنماذج السفن التى رآها فى رسومات قديمة تعود إلى حضارات متنوعة استخدم فيها البوص والبردى فى صناعة السفن وغيرها من أمور مازال بعضها موجودا إلى اليوم بعد أن اتخذ شكلا أكثر تطورا وحداثة، وبعضها اندثر وأصبح موجودا كنقوش على جدران تاريخية.

* * *

مشغل الشربينى

توجد عدة مشاغل فى إدكو، ولكننا تخيرنا (مشغل الشربينى) كونه أول مشغل دخلت عن طريقه حرفة صناعة الأكياب إلى المدينة. أقام هذا المشغل الحاج الشربينى الشربينى قديح، الذى جاء من دمياط إلى إدكو وبدأ هذه الصناعة عام ١٩٦٣م. وعندما توفى، ورث أولاده المشغل، ومنهم الحاج حسن الشربينى. يقع مشغل الشربينى على أطراف المدينة بالقرب من شريط السكة الحديد. بالقرب منه قنوات مائية وأراضى زراعية ينمو فيها البوص، ومن حوله تمتد الأراضى الزراعية المزروعة نخيل وغيرها من الأشجار. المكان متسع تتناثر فيه أكوام البوص بأنواعه المختلفة ينتظر دوره فى التقشير كى يكون صالحا لصنع الأكياب. كذلك توجد أكوام من الأكياب المصنعة تنتظر نقلها إلى المشترين، مصفوفة فوق بعضها بعضا، وذلك بلف كل كيب على شكل أسطوانة ثم بالتبادل يتم وضع الأكياب بصورة طولية وعرضية ليسهل حملها بعد ذلك. يوجد فى المشغل عدد من (الصنايعية) من الشباب تتراوح أعمارهم بين ١٦ عاما و ٢٨ عاما، كل شاب منهم يقف منفردا على (المنسج / النول) يصنع عليه الأكياب. يُشرف على تشغيل العمال ومتابعة سير العمل، وكذلك يقوم بالعمل نفسه "أشرف سعيد هلال ٤٦سنة" وهو ابن شقيقة الحاج الشربينى.

عندما وصلنا إلى المشـغل كان يعمل فى كيب بمقياس ٤×٤ مسـتخدما البوص الفارسى الذى سوف يستخدم فى تسقيف المبانى. مواسم العمل فى المشـغل تتوقف على طلبيات الأكياب. ولكن عموما فمواسـم العمل الرئيسـية تبدأ من شهر يوليو إلى شـهر ديسمبر، ثم إجازة إلى شهر مايو.

هناك مشـاغل أخرى فى مناطق أخرى من المدينة تتوزع أيضا على أطرافها، بالقرب من السـكة الحديد وكذلـك المجارى المائية ومزارع النخيل. ولكن أصحاب هذه المشـاغل، تعلموا الصنعة فى مشغل الحاج الشـربينى، ثم بعد ذلك اسـتقلوا وبدأوا فى إنشـاء مشاغل خاصة لهم يعمـل بها المزيد مـن الصنايعية. وممـن يملكون مثل هذه المشـاغل "سليم حويرة، وعطا حويرة، وعلى رمضان".

* * *

مراحل التصنيع

يدخل البوص بأنواعه، فى صناعة العديد من المنتجات، ومنها صناعة الأكياب التى يتم توظيفها بعد ذلك بطرق متعددة. وإلى جوار صناعة الأكياب، قامت عدد من الأعمال أو الخدمات المعاونة، منها ما تولاه صانع الأكياب نفسه توفيرا للنفقات، ومنها ما لايزال قائما ويعتبر من الأشياء الأساسية التى تقوم عليها الصناعة.

خدمات معاونة

أولا: مكارية البوص

وهم الذين يجلبون البوص من أماكن نموه فى المجارى المائية، إلى مشاغل التصنيع. فى الفجر، يخرجون إلى البحيرة بالقوارب، يقطعون البوص الحجنة والبردى، ويحملونه على القوارب حتى شاطئ البحيرة، حيث تكون هناك سيارات النقل فى انتظارهم لنقل البوص إلى المشاغل. هناك من اتخذ جلب البوص مهنة له، ومن أشهر المتعاملين مع مشغل الشربينى (أشرف بلال، السيد سنيور، سعد هلال) وهم من أهالى إدكو نفسها. هناك أيضا المكارية الذى يعملون على مركب خاص يطلقون عليه "مركب المكارية" وهم من الدقهلية. وجميع المكارية يلزمهم تصريح من المسطحات المائية لمزاولة حرفة قطع البوص من بحيرة إدكو والمسطحات المائية المجاورة لها.

ثانيا: مورد الخيوط (البراسل)

وهى بديل الخيوط، وتستخدم لربط البوص ببعضه بعضا. والبراسل هــى الزيــادات من الأطراف فــى القمــاش وتأتى من مصانــع القماش بالبــالات. ثم يتم لفها على (الحجر) وهــو ربع قالب طوب يلف عليه البراسل. والبراسل تأتى على نوعين:

النــوع الأول، وهــو البراســل الخفيفــة، الكيلــو منهــا يصــل إلــى ١٠جنيهــات، ويأتــى من مصانــع القماش فــى منطقة برج العرب بالإســكندرية، ويجلبــه تاجر بعينه إليهم "العربى صبح"، مؤخرا جلب لهم طنا ونصف.

النــوع الثانى، البراســل الثقيلــة، الكيلو منها يصل إلــى ٨ جنيهات ومصدرها الرئيسى مصانع النسيج فى (العاشر من رمضان) عن طريق مورد رئيسى من رشيد حيث يجلبونه بكميات كبيرة هناك بسبب استخدامه فى تصنيع الأكلمة.

ثالثا: عامل التقشير

ويقصد بها تقشير البوص وتنظيفه من أوراقه تمهيدا للتصنيع. كان يقــوم بهذه المهمة عمال يأتون بصورة غيــر منتظمة يعملون باليومية فى التقشــير. ومنذ سنوات، كانت عملية تقشــير البوص يشترك فيها الفتيــات أيضا، وكن يعملن بجد كالرجــال وبيومية ٥ جنيهات. ولكن بعــد أن رفعــن من أجورهن إلى ٣٠ جنيها وقــل الناتج من عملهن، تم

الاســتغناء عنهن. كذلك تم الاســتغناء عن العمال الذكور عندما ساءت أحوال الحرفة، وأصبح صانع الأكياب يخدم على نفسه بنفسه بتنظيف البوص الذى يلزمه قبل البدء فى العمل.

* * *

أدوات المهنة

المنسج

يتم صنع الأكياب (السـدية) على نول أو منسج، وهو بسيط يتكون كله من منتجات البيئة نفسها:

١- المنسج.

وهو قطعة من خشب قد يصل طولها إلى ٥متر، يتم رفعها عن سطح الأرض باسـتخدام حاملين من الطوب والحجارة بارتفاع يتراوح ما بين متر، ومتر وعشرة سنتيمترات حسب طول الصانع.

٢- الركيزة.

واحدة فى كل جانب، وهما ركيزتان من الخشب تثبتان المنسج إلى الأرض لتمنعه مع السقوط تحت ثقل الكيب المنسوج.

٣- الحجر.

وهو البراسل بعد لفه على ربع قالب من الطوب الأحمر.

٤- العريشة.

وهى تشـبه مربع أو مسـتطيل يتم تحديد أضلاعه بقوائم من جذوع النخيل أو مـن الغاب العملاق، وعوارض علوية ثم يتم تغطيته بأكياب

بـــوص الحجنة أو البردى. وذلك لحماية الصانع من الشـــمس وتيارات الهواء.

مراحل تصنيع الكيب

١- يتم تحديد مقاسات الكيب المراد تصنيعه.
٢- يتم تثبيت (الحجر) على عارضة المنسج.
٣- يتم وضع البوص واحدة بعد الأخرى مع تحريك (الحجر) بالتبادل إلى الأمام والخلف، كى يضم البوص مع بعضه بعضا.
٤- مـــع مراعـــاة فصل قمة (شوشـــة) البـــوص قبل ضمه إلـــى الكيب، بالإضافة إلى كســـر الجزء السفلى من البوصة مع عدم فصله، وذلك كى لا تتقوس البوصة بعد ذلك عند تعرضها للمطر والشـــمس، مما يؤدى إلى عدم انتظام الكيب.
٥- يتـــم تكـــرار وضع البوص، مع تكرار حركـــة الحجر حتى الوصول إلى مقاس الكيب المطلوب، ثم يتم عقد البرســـل، وفصل الكيب من المنسج، أو بدء كيب جديد، وهكذا دواليك.
٦- يتـــم لـــف الكيب على هيئة أســـطوانة، ويتم وضعـــه بصورة قائمة مســـتندا على جدار، أو فى مجموعات فـــوق بعضها بالتبادل طولا وعرضا تمهيدا لنقله.

* * *

الظروف الاجتماعية للحرفة

أخبرنا القائم على مشـغل الشـربينى، أن فى الماضـى كانوا يبيعون الكثيـر من الأكياب إلى أماكن داخل مصـر وخارجها، ومنها كرداسة، وشـرق العوينات، و ليبيا. كذلك القرى السياحية فى مراقيا والتـى كانت تطلب كميات كبيرة قد تصـل إلى ١٣٠٠ متر من الأكياب أغلبها من مقاس ٢×٣ لاستخدامها فى حجز الرمال فى الأماكن القريبة مـن البحر، إلى جانب إقامة الكبائـن والبرجولات. ولكن تدهور حال السـياحة فى الثلاث سنوات الأخيرة، أوقف طلبات القرى السياحية، كذلـك توقفـت طلبيـات أصحـاب الأراضى مـن الأكياب التـى كانوا يسـتخدمونها لحماية النباتات الحديثة النمـو، وذلك لتراجع عملية الزراعة نفسها مخافة عدم تسويق محصولهم نظرا لركود السوق وتعثر التصدير مؤخرا..

ولكـن، بين الحين والآخر تشـهد صناعة الأكيـاب ازدهارا وقتيا ومحـدودا لا يقاس عليه حـال الحرفيين فى هذه المهنة. يخبرنا أيضا الحاج أشرف، أن الطلب على الأكياب اشتد فى الشهرين التاليين لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م، وهما الشـهران اللذان شـهدا تسارع عمليات البناء المخالف على الأراضى الزراعية، حيث تم اسـتخدام الأكياب لتحديد الأراضى وتسـييجها، ومن ثم البناء عليها باستخدام الأكياب، ثم بعد

ذلك يتم تلطيخها بطبقة من الطين والجير فتبدو وكأنها مبان قديمة تم بناؤها مـن قبل، وعندما تأتى قوات الإزالة تخرج التقارير بأنها مبان قديمة وليسـت تعديات حديثة. كذلك يكثـر الطلب على تلك الأكياب المصنوعة من البوص الفارسى لصنع أسقف المبانى، ثم يتم وضع طبقة من الخرسانة بعد أن ارتفعت أسعار الحديد بصورة جنونية.

مما أخبرنا به الحاج أشـرف فى مشغل الشـربينى، أن من يزاول هـذه المهنة فى محافظة البحيرة متواجدون فى إدكو بصفة أساسـية، بالإضافة إلى أن أصحاب المشـاغل يسـتخدمون صناعا لتصنيع الأكياب بأنواعها فى بيوتهم خارج المشـغل وذلك فى مواسـم اشـتداد الطلب على الأكياب. مثلما يفعل أصحاب مشـغل الشربينى حيث يعمل لديهم حوالى (١٢ عامل) فى المشـغل وخارجه فى الحماد وكفر الشيخ حيث تعمل النساء فى هذه الحرفة على عكس إدكو التى تقتصر فيها الحرفة على الرجال وحدهم. ومن المقابلات التى أجريناها مع الشـباب الذين وجدناهم بالمشـغل، خرجنا بنتيجة مؤكدة أن هذه الحرفة طاردة لمن يعمل بها. ومن يزاولها يكون بصورة اضطرارية ويتحين الفرصة لتركها لأسباب عديدة، رصدنا منها:

١- يعمـل بهذه الحرفة من لا يجد عملا، إلـى أن يجد عملا فيتركها فورا.

فالشـباب الذين قابلناهم فى مشـغل الشـربينى، منهـم من معه شهادات متوسطة، ومنهم من يعمل لعدم وجود فرصة أخرى ومستعدين

ترك العمل فورا إلى عمل آخر. ومنهم (رمضان المرمى ١٧عاما) حاصل على الشـهادة الابتدائية يعمل فى هذا المجال منذ عامين، وبين الحين والآخر ينقطع عن العمل فى المشغل كى يجرب عملا آخر مثل الحدادة وسـمكرة السيارات، يعود بعدها مرة أخرى انتظارا لفرصة أخرى. من العمال أيضا شـباب، كانوا أو ما زالوا يدرسـون فى مدارسهم ويعملون إلى جانب الدراسـة، ومنهم (أحمد عبـد القوى، ٢٣ عاما) حصل على دبلـوم زراعة، وكان يعمل إلى جانب الدراسـة، منذ عشـر سـنوات. و(محمد صفوت الشربينى، ١٨ عاما) مازال يدرس ويمارس المهنة منذ عشر سـنوات عن والده الراحل صفوت الشربينى وهو حفيد الشربينى الأكبـر. كذلك (فتح الله المرمـى، ٢٨ عاما) دبلوم صنايع يعمل منذ ١٥ عاما وله شـقيقان يزاولان المهنة نفسها. وهناك المتسربين من التعليم مثـل (محمد جعبوب، ١٦ عاما) لم يكمل تعليمه الإعدادى، كان يعمل سابقا صنايعى رخام ويعمل فى المشغل منذ عام ونصف.

٢- المجهـود البدنى الكبير حيث يتعين على من يصنع الأكياب العمل واقفا، ومتحركا طوال الوقت يمينا ويسـارا لوضع البوص وتحريك الحجر للأمام والخلف لوصل البوص ببعضه. فلا يقدر عليها سـوى الشباب صحيحى البدن..

فالحاج أشـرف سـعيد هلال ٤٦ سـنة، الذى يشـرف على مشغل الشـربينى، يعمـل فى هذه المهنة من ٣٥ عاما معـه دبلوم تجارة عام ١٩٨٦م، ويبـدأ العمل يوميا من السـاعة السادسـة صباحـا إلى حلول

المساء، ويتمنى أن يعود الزمن ويحترف حرفة أخرى تضمن له دخلا مناسبا وثابتا لو أصابه مرض ولم يستطع العمل اليومى، أو مع تقدم العمر، حين لن يستطيع تحمل آلام الظهر والساقين. له بنت فى الثالثة عشر من عمرها، وولد عمره ١٠ سنوات. عندما سألته هل علم ابنه المهنة؟ كانت إجابته نفيا ورفضا قاطعين، فلم ولن يعلمه الصنعة. بل عندما لاحظ تكاسله فى الدراسة وأراد عقابه أتى به إلى المشغل، جعله يقشر البوص كى تتجرح يداه ويدرك مدى صعوبة الحياة، ويلاحظ الجهد الذى تتطلبه المهنة.

٣- العائد المادى الذى يتوقف على الإنتاج وذلك يستوجب العمل طوال اليوم إلى بداية الليل لتحقيق أكبر عدد من الأمتار.

فالصنايعى ممكن ينسج ٢٥ مترا فى اليوم ، ومنهم من يعمل فى المشغل، ومنهم من يصنع الأكياب فى منزله لمواصلة العمل ليلا ونهارا، ثم يحضر الأكياب للمشغل بعد ذلك .

٤- نظرة المجتمع لصاحب العمل اليدوى عامة، وصانع الأكياب خاصة، فلا يوجد مسمى يتم تعريف صانع الأكياب به، ولذلك لا يخضع لقائمة الحرف التى توضع فى البطاقة، ولذلك يتم إثبات (عاطل) أو الشهادة المتوسطة إن وجدت.

٥- عدم وجود تأمين على العاملين بالمهنة، مما يترتب عليه عدم وجود معاش أو تعويض عند العجز عن العمل.

٦- سوء سوق البيع أدى إلى ثبات سعر الأكياب وتدنيها فقل بذلك العائد المادى.

٧- لا مستقبل لها، فلا تجديد ولا إبداع بها، وما يتم فيها منذ أن عرفها الناس لم يتغير.

* * *

البوص قيمة اقتصادية وفائدة

للبوص بأنواعه قبل التصنيع، أو مصنعا على هيئة أكياب / سداة العديد من الفوائد والاستخدامات التى يجب المحافظة عليها والتوسع فيها، ومن هذه الاستخدامات التى يقوم بها البوص ومنتجاته ويحل فيها محل منتجات أخرى أكثر تكلفة:

أولا: يستخدم لعمل مصدات للرياح فى التربة الصحراوية للحفاظ على الشجيرات الصغيرة والثمار والزهور وعلى سبيل المثال لا الحصر:

يستخدم البوص فى مزارع المانجو لحماية أشجار المانجو خاصة الصغيرة منها والتى تكون حساسة لحرارة الصيف وبرودة الشتاء، ولذلك يتم تغطية الأشجار الصغيرة بعد زراعتها بغطاء من سعف النخيل، أو أكياب من البوص، مع مراعاة فتحه من الجهة البحرية فى الصيف وفتحه من الجهة القبلية فى الشتاء وذلك لدخول الهواء من الجهة البحرية وأشعة الشمس من الجهة القبلية. وفى بعض المناطق يتم عمل أقفاص من الجريد على شكل مخروط أبعاد قاعد قاعدته ٨٠ × ٨٠ سم وارتفاعه ١٦٠ سم ويوضع هذا المخروط حول الأشجار الصغيرة فى سنين عمرها الأولى (١ – ٤ سنوات) ويغطى هذا المخروط بالخيش ويجب أن يكون الغطاء متسعا بحيث لايتعارض مع النمو

الطبيعى للأوراق والأفرع. أيضـا فى مزارع الموز، يتم العناية بحماية المزرعـة من أضـرار الرياح بعمل سـياج من أكياب البـوص أو الغاب بارتفاع لايقل عن ٣,٥ متر.

ثانيا: بناء الكبائن، والعشـش في المصايف، مثل رأس البر التى كان يأتيها صيادو الأسماك والسـمان في موسم صيدها ويقيمون عششا للإقامـة بهـا ومن هنا بدأت تسـمى ثكنات رأس البر بالعشـش لإقامتها مع بداية موسـم الصيف من الأخشـاب والسـدد البوص والأكيـاب بيد عمال متخصصين ومهرة فى إتقانها وهذا كان يميز مصيف رأس البر دون غيره من المصايف.

ثالثـا: مصـدات الرياح للصـوب الزراعية حيث يتم عمل سـياج من الغاب أو البوص أو السدايب أو الأكياب مع دعامات من الأخشاب بطـول موقع الصوب لحمايتها من الريـاح والأتربة وتهدئة حدة وشدة الرياح وقت هبوبها.

رابعـا: بعـض شـركات الإنتاج الحيوانـى تسـتخدمه لعمل مظلات للحيوانات (عرايش).

خامسـا: يسـتخدم البوص فى صنع بعض الأدوات الموسـيقية ومن أشـهرها "الناى" وهو عبارة عن قصبة جوفاء، مفتوحة الطرفين، ومنذ القدم، استخدم البابليون وقدماء المصريين هذه الآلة للعزف.

سادسـا: كذلـك جاء علـى شـبكة الإنترنـت، ومتعلقا باسـتخدام البردى، ذكر "الحصائر السـليمانية" ومادتها الرئيسية البردى.

"قش البردى" له نوعان الأول: الصلب الذى يستخدم فى صناعة "الحصائر السليمانية" والثانى "طرى" أو يسمى "النّى"، ويدخل فى صناعة "مكانس" القش القديمة التى لم تعد تستخدم فى المنازل، بسبب ظهور "مكانس البلاستيك" و"المكانس الكهربائية"، وتتميز "مكانس القش" بقدرة فائقة على إزالة "الأوساخ" الصغيرة، وتستخدم الآن فى تجميع "الموالح" بعد تحميصها لأنها ذات حرارة عالية بعض الشىء. كذلك تستخدم "الحصائر السليمانية" من أجل نشر بعض أنواع الخضار والفواكه التى تؤكل مجففة أحيانا، هذا يعود لسبب العزل الذى يتمتع بها "قش البردى" فعملية "التنشيف" يجب أن لا تؤثر عليها طبيعة الأحوال الجوية وخصوصا دفء الأرض (المنشورة عليها الفواكه) أو برودتها. كذلك يتم استخدام البردى فى مشاتل الزهور، بنشر أعواد "القش اللين" على التربة ومن ثم رشها بالماء من أجل الحفاظ على نسبة رطوبة معينة للتربة، لمساعدة الورود فى التفتح وإطالة فترة حياتها فى الصيف، أما فى فصل الشتاء فتحافظ هذه الأعواد على حرارة المكان دون رشها بالماء، وبالتجربة، فالبردى أكثر فعالية وأقل تكلفة من المواد الكيميائية.

سابعا: فرص دائمة للاستثمار..

فالبوص والبردى منه على وجه الخصوص يشكل وسيلة لزيادة الدخل لو تم استخدامه بطريقة جيدة، والأهم من ذلك عملية التسويق والترويج له. ومثال على ذلك قرية قرماوص، التابعة

لمركـز أبو كبير بالشـرقية، والتـى يعمل جميع سـكانها، وهم نحو ١٨ ألف نسـمة، فى زراعة نبات البردى على مسـاحة ٥٠٠ فـدان، وبعد جمع المحصول يتم تحويله إلى ورق بردى وبيعه إلى السـياح الذين يقبلون على اقتنائه. فقريـة "قرماوص" هى القرية الوحيـدة فـى العالم التى تخصـص أراضيها كاملـة لزراعة نبات البـردى. وصناعـة ورق البردى تعد مصدر الـرزق الوحيد لجميع أبناء القرية، وبرغم أن العديد من أبناء القرية حصلوا على مؤهلات عليا لكنهم فضلوا العمل بورق البردى لارتباطهم به منذ طفولتهم، حيث انتشرت زراعة البردى فى القرية منذ أكثر من ٣٠ سنة على يـد "الحاج أنس" الذى جلب إحدى الشـتلات معه من على ضفاف النيل، ثم زرعها بالقرية، ثم أنشأ معملا صغيرا لتصنيعه واستعان بالعديـد من أبنـاء القرية، ومن وقتها عـرف أهالى القرية زراعة ورق البـردى، واشـترك الجميع بما فيهم النسـاء فى صناعة ورق البردى حيث لا يوجـد عاطل بالقرية. وبالطبع فإن أغلب منتجات القرية يدخل نطاق السـياحة والتى تأثرت فى الآونة الأخيرة بعد عام ٢٠١١م فتأثرت أحوال أهل القرية الذين يعتمدون على البردى كمصدر رزقهم الأساسى إن لم يكن الوحيد...

ثامنا: استخدام البوص (غاب الأكياب) فى عملية إنشاء منازل سريعة وبسيطة التكلفة.

وخاصة فى الأراضى ذات التربة الطينية الضعيفة كما هو الحال فى بحيرة المنزلة بمصر والأهواز فى العراق، فالبوص هو العنصر المعمارى

المناسب لهذه التربة التى لا تستطيع تحمل الأوزان الثقيلة المتمثلة فى الخرسانة المسلحة، حيث يؤدى استخدام المبانى الخرسانية إلى تشرخات وتصدعات فى المبانى إلى جانب غرق (غوص) المبانى فى الأرض لرخاوتها.

كذلك توجد مقترحات طموحة وعملية لاستخدام البوص فى إنشاء منازل الإيواء العاجل مثلا أثناء الكوارث الطبيعية، لتحل محل الخيام. ومما تذكره شبكة الإنترنت عن استخدام البوص فى بناء وحدات سكنية وغيرها، أن الدكتور "أحمد عبد النبى" قام ببناء العديد من المبانى المشيدة من البوص فى العديد من القرى السياحية فى سيناء والبحر الأحمر وبعض بيوت الأثرياء فى القاهرة وغيرها وحازت على إعجاب الكثيرين. ونجاح الفكرة جعله يأمل فى انتشار هذه العمارة بهدف الحصول على مسكن رخيص غير مكلف ملائم للبيئة وسهل البناء. كما أنه ينوى إنشاء «قرية النابهين» التابعة لإحدى الجمعيات الخيرية فى منطقة «دير العبد فى شمال سيناء» وهى قرية ستشيد بالبوص كاملة الوحدات من «سكن ومساجد ومطاعم ودورات مياه وجميع الخدمات» وستكون نموذجا للقرية الحديثة المشيدة بالبوص.

وقد ذكر لنا المسئول عن (مشغل الشربينى) أنه ساهم فى إقامة بعض (المنازل) من البوص فى بعض القرى المجاورة التى أراد الفلاحون بناء منازل لهم دون توقيع المخالفة الخاصة بالبناء على أرض زراعية. وكانت عملية البناء فى هذه الحالة بصنع الدعامات

مــن جذوع النخيل، ومواد الحشــو بين تلك الدعائــم فتكون من الغاب وجريد النخيل، ثم يتم تلبيســهم جميعا بالطين، أما السقف تستخدم الأكياب وخاصة المصنوعة من البوص الفارســى لقوة تحمله، كســقف فوق الدعامات.

وفى منطقة بحيرة المنزلة، شــيد سكان منطقة البحيرة وما حولها مساكنهم ســواء أكانت أكشاكا أم عشش من البوص الذى يبنى فى حزم بطريق الشــبيكة «الخطوط المتقاطعة» ويكون الســقف جمالونى الشكل وتستخدم الحبال كأداة لربط حزم البوص أما أرضية الكشك فهى خليط من الطمى وكسر القواقع..

* * *

ملحـــق الصـــور

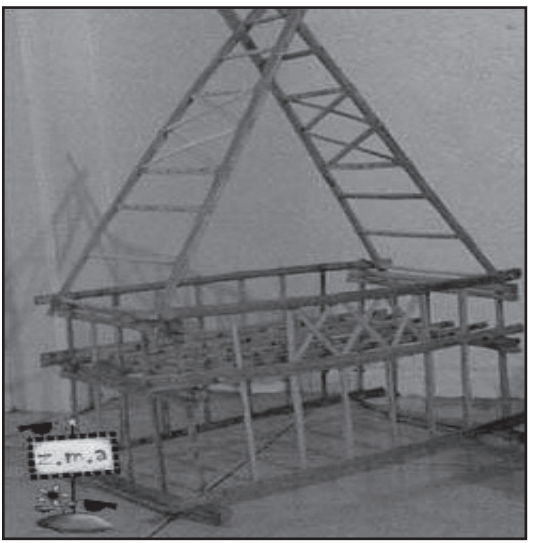

(١) سرير المنز المصنوع من الجريد

(٢) حزام من الليف

(٣) حزام من الليف ويظهر فى الصورة مقاساته

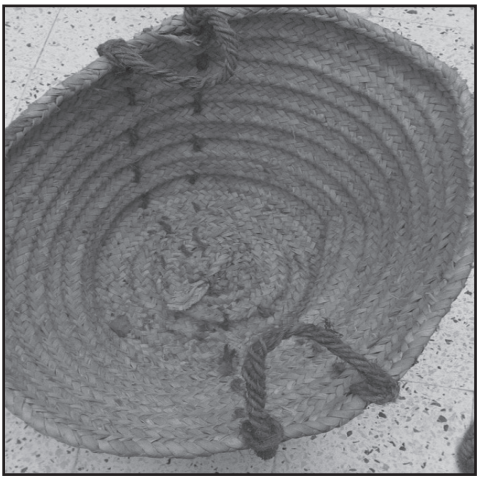

(٤) صورة علوية للقفة تظهر خياطة اليدين وتثبيتها باستخدام الليف وصولا إلى القاعدة

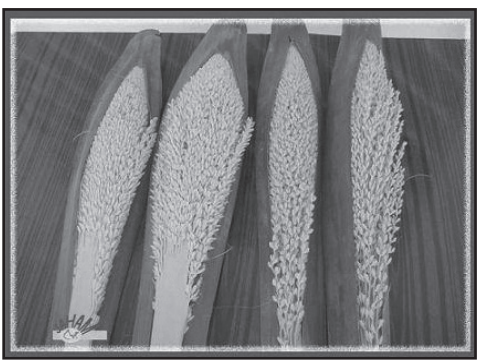

(٥) حبوب لقاح النخيل وهى داخل غلافها

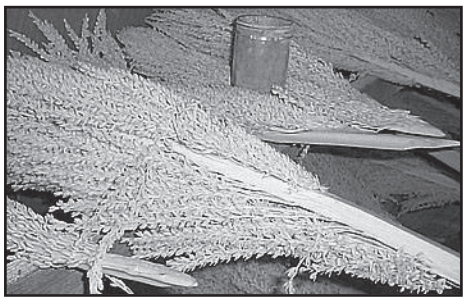

(٦) لقاح النخيل بعد فصلها استعداد العملية التذكير أو التلقيح

(٧) سفينة (رع)٢ المصنوعة من البروى

(٨) حزم الجريد بعد التقشير السعف عنها

(٩) السعف ينتظر التصنيع فى ربطات أو حزم

(١٠) المعلم أحمد أبو على صاحب حوش يعمل به القفاصون

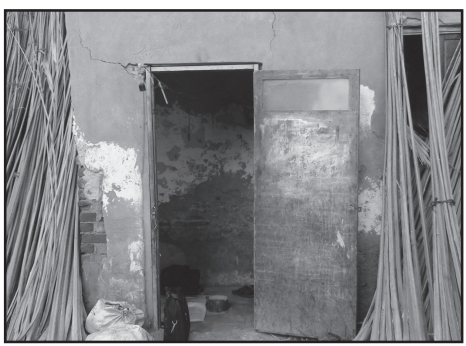

(١١) الغرفة التى يزاول فيها الحاج مصطفى حبلص عمله

(١٢) مجموعة من الأقفاص تنتظر البيع

(١٣) الشكل النهائى لرص الأكياب بالتبادل

(١٤) النول أو النسيج وعليه كيب من البوص الفارسى

(١٥) الحجر أثناء العمل

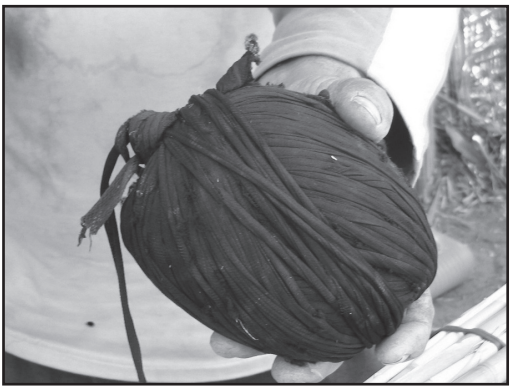

(١٦) الحجر بعد إتمام عملية لف البراسل

(١٧) الحجر قبل لف البراسل عليه

(١٨) المنسج وتظهر الأحجار بالخلف العرشية

(١٩) حزم من البوص بعد التقشير

(٢٠) البوص قبل عملية التقشير

(٢١) الحاج أشرف هلال المسئول عن مشغل الشربينى

(٢٢) قفص نقل التين

(٢٣) كراسى من صنع المعلم محمد راشد

(٢٤) المعلم محمد راشد وتصنيع الأثاث

(٢٥) الحاج مصطفى حبلص ويظهر فى الصورة الظروف البيئية التى يزاول فيها مهنته

الهوامش

١- موسوعة الحرف التقليدية - الجزء الأول - ص ٥.
٢- مختـــار الصحاح - الطبعة الأولـــى - دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٦٧م - ص ١٣١.
٣- ابن منظور - لسان العرب - دار صادر - بيروت ٨ - ٢٠٩.
٤- سورة النمل - آية ٨٨.
٥- سورة طه - آية ٤١.
٦- التراث الشـــعبى - د.عبد الحميد يونس - دار المعارف - ١٩٧٩م - ص ٥٣.
٧- المرجع السابق - ص ٥٤.
٨- الحيـــاة اليومية فى مصر - بيير مونتيه - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ترجمة عزيز مرقص - ١٩٩٧م - ص ٨.
٩- الحياة عنـــد الفراعنة - ت.ج.جيميـــز - ترجمة د.أحمد زهير - مكتبة الأسرة - ١٩٩٨م - ص ١٩٤.
١٠- الحياة اليومية فى مصر - بيير مونتيه - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ترجمة عزيز مرقص - ١٩٩٧م - ص ٣١.
١١- المرجع السابق - ص ١٢٥.
١٢- معلومات متفرقة من شبكة الإنترنت بتصرف.

١٣- موسوعة الحرف التقليدية - الجزء الأول - ص ١٤.
١٤- عبدالله النديم: جريدة الأستاذ الجزء الخامس، السنة الأولى (٢٠ / ٩ / ١٨٩٢م).
١٥- سفر صموئيل الثانى - الإصحاح الخامس.
١٦- أشعياء ١٠ - ١٥.
١٧- سورة هود - آية ٣٩.
١٨-سورة الأنبياء - آية ٨٠.
١٩- سورة يوسف - آية ٥٤.
٢٠-سورة طه - آية ١٨.
٢١-سورة الأنبياء - آية ٨٢.
٢٢-سورة ص - آية ٣٧.
٢٣- سورة سبأ - آية ١٣.
٢٤-معجم البلدان - ٥ / ٤٤٨.
٢٥- ر.بلاشير - تاريخ الأدب العربى- ترجمة د. إبراهيم الكيلانى - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٣م.
٢٦- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد على - دار العلم للملايين - بغداد ١٩٧٨م (٧ - ٥٤٣) (نسخة إلكترونية).
٢٧-الحياة عند الفراعنة - ت.ج.جيميز - ترجمة د.أحمد زهير - مكتبة الأسرة - ١٩٩٨م - ص ١١٨.
٢٨- المرجع السابق ص ١١٩.

٢٩- المرجع السابق ص ١٢٠.
٣٠- المرجع السابق ص ١٢١.
٣١-المرجع السابق ص ١٠٠.
٣٢- المرجع السابق ص ١٠١.
٣٣- الحياة اليومية فى مصر – بيير مونتيه – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ترجمة عزيز مرقص – ١٩٩٧م – ص ١٨١.
٣٤- د. السيد أمين شلبى – جريدة القاهرة – العدد ٧٠٠ – ١٢ نوفمبر ٢٠١٣م.
٣٥- الحياة عند الفراعنة – ت.ج.جيميز- ترجمة د. أحمد زهير – مكتبة الأسرة – ١٩٩٨م – ص ٨٥.
٣٦- المصدر السابق – ص ٨٦.
٣٧- المصدر السابق ص ٨٥.
٣٨- المصدر السابق ص ٩٨.
٣٩- المصدر السابق ص ٩٤.
٤٠- المصدر السابق ص ٨٨.
٤١- الحياة اليومية فى مصر – بيير مونتيه – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ترجمة عزيز مرقص – ١٩٩٧م –ص ٢٠.
٤٢- المصدر السابق٣٠.
٤٣- المصدر السابق ١٠٩ – ١١٠.
٤٤- موسوعة وصف مصر – الجزء الرابع – ص ٩٧.

٤٥- سفر الخروج - ٢٧ : ١٥.
٤٦- المزامير ٢٩ - ١٢.
٤٧- شجرة العذراء - توفيق الفكيكى - نسخة إلكترونية - ص ١٣.
٤٨- جـواد علـى - المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسـلام - نسـخة إلكترونية - ج ١ - ص ٥٧ - ٧٦.
٤٩- معلومات من شبكة الإنترنت.
٥٠- الإسـكندرية تاريخ ودليل - إ.م.فوريستر - ترجمة حسن بيومى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠١٢م - ص ٢٣٤ - ٢٣٥.
٥١- علـى ضفاف بحيرات مصر - الجزء الثانى - اللواء عبد المنصف محمود.
٥٢- الإسـكندرية تاريخ ودليل - إ.م.فوريستر - ترجمة حسن بيومى - الهيئـة المصريـة العامة للكتـاب -٢٠١٢م - ص ٢٣٥، ٢٣٦ بتصرف.
٥٣- المصدر السابق ص ٢٣٧.
٥٤- المصدر السابق ص ٢٣٥ - ٢٣٩ بتصرف.
٥٥- مدينة رشيد - من موسوعة وصف مصر - تأليف جولوا - ترجمة زهير الشايب - ص ١٧.
٥٦- المصدر السابق ص ١٧ - ١٨.
٥٧- المصدر السابق - ص ٣٢.
٥٨- المصدر السابق - ص ٣٧.

٥٩- المصدر السابق - ص ٤٤.
٦٠- المصدر السابق ص ٤٥.
٦١- موسوعة الحرف التقليدية - الجزء الرابع - ص ٥٤.
٦٢- المصدر السابق ص ٥٤.
٦٣- المصدر السابق ص ٥٥.
٦٤- محمد الجهينى، أحياء القاهرة القديمة وآثارها الإسلامية: حى باب البحر، القاهرة: دار نهضة الشرق، ٢٠٠٠م، ط١، ص ١٣٤ - ١٣٥.
٦٥- مدينة رشيد - من موسوعة وصف مصر - جولوا - ترجمة زهير الشايب - ص ٢٣.
٦٦- المصدر السابق ص ٦١.
٦٧- المصدر السابق ص ٦٩.
٦٨- موسوعة الحرف التقليدية فى مصر - ج ٤ - ص ٧٧.
٦٩- المصدر السابق.
٧٠- المصدر السابق.
٧١- المصدر السابق ص ١٠٠.
٧٢- المصدر السابق ص ٩٤.
٧٣- المصدر السابق ص ٩٥.
٧٤- المصدر السابق ص ١١١.
٧٥- المصدر السابق ص ١١٢ - ١١٣.

٧٦- المصدر السابق ص ١١٤.
٧٧- المصدر السابق ص ١٢٩.
٧٨- المصدر السابق ص ١٣٠.
٧٩- المصدر السابق ص ١٣١.
٨٠- المصدر السابق ص ١٣٢.

* * *

أهم المصادر والمراجع

١- كتاب الحياة أيام الفراعنة / ت ج جيميز. ترجمة د. أحمد زهير / الهيئة المصرية العامة للكتاب / مكتبة الأسرة ٩٨.

٢- كتاب الإسكندرية تاريخ ودليل / إم فورستر / ترجمة حسن بيومى / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ٢٠١٢م.

٣- مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٨٨م.

٤- كتاب الحياة اليومية فى مصر / بييـر مونتيه / الهيئة المصرية العامة للكتاب / ترجمة عزيز مرقص منصور / ١٩٩٧م.

٥- جواد على: المفضل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (نسخة إلكترونية).

٦- موسوعة وصف مصر - علماء الحملة الفرنسية - الأجزاء ٢،٤،٧،٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠٠٢م.

٧- موسوعة الحرف التقليدية - جمعية أصالة - ٢٠٠٨م.

٨- مختار الصحاح - الطبعة الأولى - دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٦٧م.

٩- التراث الشعبى - د.عبد الحميد يونس - دار المعارف - ١٩٧٩م.

١٠- ر.بلاشير - تاريخ الأدب العربى - ترجمة د. إبراهيم الكيلانى - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٣م (على شبكة الإنترنت).

١١- موقع كنيسة سانت تكلا- شبكة الإنترنت.

المحتوى

١ – مصر المستقبل ٧
٢ – الحرف، بدايات وشواهد ١٩
٣ – الحرفة بين التقدير والتحقير ٣٧
٤ – نظرة المصرى القديم إلى الحرف اليدوية ٤٣
٥ – الزراعة ٥٤
٦ – النخلة بين العقيدة والتراث ٦٧
٧ – النخيل عادات وسياسة ٧٤
٨ – نخيل البلح قيمة وفائدة وعلاج ٨٠
٩ – إطلالة على تاريخ مدينتى إدكو ورشيد ٨٥
١٠ – منتجات النخيل فى إدكو ورشيد ١٠٥
١١ – الخُص.. الكابنية.. القرشية ١٠٨
١٢ – رحلة استكشافية إلى رشيد وقرية البرج ١١٦
١٣ – تصنيع الجريد ١٢٦
١٤ – السعف ومراحل الإنتاج ١٣٤
١٥ – منتجات السعف السائدة فى منطقة الدراسة ١٣٨
١٦ – منتجات الليف ١٤٥
١٧ – المستقبل خامات النخيل والتنمية ١٤٨

١٨ – البوص / الغاب ١٥٤
١٩ – البردى تاريخ وحضارة ١٥٩
٢٠ – رحلات ثور هيردال وسفن ورق البردى ١٦١
٢١ – مشغل الشربينى ١٦٣
٢٢ – مراحل التصنيع ١٦٥
٢٣ – أدوات المهنة ١٦٨
٢٤ – الظروف الاجتماعية للحرفة ١٧٠
٢٥ – البوص قيمة اقتصادية وفائدة ١٧٥
٢٦ – ملحق الصور ١٨١
٢٧ – الهوامش ١٩٥
٢٨ – المصادر والمراجع ٢٠١

* * *

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

– داخل جمهورية مصر العربية ٩٦ جنيها.

– الدول العربية واتحاد البريد العربى ١٢٠ دولارا أمريكيا.

– الدول الأجنبية ١٣٠ دولارا أمريكيا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدما نقدا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل – ماسبيرو – القاهرة.

يصدر قريبا

■ التلوث الخفى.. يسكن بيتك
عبد الفتاح عنانى